

صلاآ الدين يوسف بن أيوب

من

طبقات الشافعية الكبرى

لتاج الدين السبكي

يوسف بن أيوب بن شادي بن مروان الدويني الأصل، التكريتي المولد

ودوين بضم الدال وكسر الواو بعدها آخر الحروف ساكنة ثم نون،
بطرف أذربيجان، من جهة أران أهلها أكراد.

وهو السلطان الملك الناصر، الثقي النقي، العالم الذكي، العادل
الزكي، فاتح الفتوح، بركة أهل زمانه، صلاح الدين أبي المظفر، ابن
الأمير الملك الأفضل نجم الدين.

ولد سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، بتكريت، إذ أبوه واليها.

وسمع الحديث من الحافظ أبي طاهر السلفي، وأبي الطاهر بن عوف،
والشيخ قطب الدين النيسابوري، وعبد الله بن بري النحوي، وجماعة.

روى عنه يونس بن محمد الفارقي، والعماد الكاتب، وغيرهما.

وكان فقيها، يقال: إنه كان يحفظ القرآن و«التنبيه» في الفقه
و«الحماسة» في الشعر.

وملك البلاد، ودانت له العباد، وأحبه الخلق، ونصر الإسلام، وغزا
الفرنج وكسره مرات، وفتح المدن الكبار، وأقام في السلطنة أربعاً
وعشرين سنة، يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله.

وكان ملكاً عظيماً شجاعاً مهيباً عادلاً، يملأ العيون روعه والقلوب
محبة، قريباً بعيداً، عادلاً قانتاً لله، لا تأخذه بالله لومة لائم، مجلسه يجمع
الفضلاء والفقراء، وأصحابه كأنها هم على قلب رجل واحد، محبة فيه
واعتماداً وطواعية.

ولقد صنف في سيرته القاضي ابن شداد كتابا مستقلا، وصنف ابن
واصل كتابا في سيرته وسيرة أهل بيته، وصنف أبو شامة في سيرته وسيرة
الملك نور الدين، وصنف العماد الكاتب في فتوحاته وصنف آخرون في
شأنه، وما عسى الذي نوره بعد ما أطال هؤلاء، ثم اعترفوا بالقصور
والتقصير، في حق هذا السيد الكبير، ولنأت بما فيه مقنع وبلاغ.

ذكر ابتداء أمره قبل ملكه

قدم به أبوه إلى دمشق وهو رضيع، فتاب أبوه ببعلبك لما أخذها أتاك زنكي في سنة ثلاث وثلاثين، وقيل: إن أباه خرج من تكريت في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين فتطيروا به، وقال بعضهم: لعل فيه الخيرة وأنتم لاتعلمون، فكان كذلك، ثم اتصل والده نجم الدين أيوب بالملك نور الدين الشهيد، خدمه هو وولده صلاح الدين هذا خدمة بالغة، وكان أسد الدين شيركوه أخو نجم الدين عند نور الدين قبلهما، وكان أرفع عنده منهما منزلة، فإنه كان مقدم جيوشه، فلما تخلخل حال المصريين الفاطميين، وضعفوا عن مقاوة الفرنج، وكادت الفرنج تملك القاهرة، وملكوا بلييس، وصيروا لهم بالقاهرة شحنة يحكم، وضعف أمر الإسلام بديار مصر جدا، وكان الفاطميون قد بلغوا في سوء السيرة إلى الحد المعروف، وأفتى علماء الاسلام بإباجة دمائهم، ووجوب قتالهم، لما هم عليه من الزندقة والإلحاد، ووصل شاور وزير العاضد خليفة مصر إلى دمشق إلى نور الدين يستنجده، ثم عاد إلى مصر، فجهز نور الدين إليهم عسكريا أمر عليهم أسد الدين شيركوه، وجهز معه أخاه نجم الدين، وابن أخيه صلاح الدين، فدخلوا مصر آمينين، وقتلوا شاور، وولي شيركوه وزارة الخليفة العاضد، إلى أن مات بعد نيف وسبعين يوما، فولي بعده صلاح الدين الوزارة، وهي في ذلك الوقت كالسلطنة، فاستقل بسلطنة مصر، ولقب بالملك الناصر، لقبه بذلك الخليفة العاضد، في سنة أربع وستين، وصار للعاضد معه الاسم فقط، وصار صلاح الدين هو السلطان، فاستمر إلى أول سنة سبع وستين، فقطع صلاح الدين الخطبة للعاضد، وخطب للمستضى خليفة بغداد، واستقل بالملك، ومات العاضد، وقبض صلاح الدين على الفاطميين بأسرهم، واستولى على القصر وخزائنه، وهي أموال لا تحصى ولا تعرف لملك قبل الفاطميين.

وكان صلاح الدين من حين اتصل بخدمة نور الدين قد طلق

اللذات، وكان محببا إليه خفيفا على قلبه، ولما افتتح مع عمه مصر ثم استقل بالوزارة عظمت سطوته، واتفقت له وقعة مع السودان سنة بضع وستين، وكانوا نحو مئتي ألف، فنصر عليهم وقتل أكثرهم، وهرب الباقون، وابتنى سور مصر والقاهرة على يد قراقوش، واستفحل أمره جدا إلى أن أباد بيت الفاطميين وأهان الرفض وغيرهم من بدع المبتدعين.

ذكر يسير من أخباره بعد استقلاله بالسلطنة وموت العاضد

وقد كان لما قبض على الفاطميين أخذ في نصره السنة وإشاعة الحق وإهانة المبتدعة، والقبض على الفاطمية والانتقام من الروافض، وكانوا بمصر كثيرين، وكان من أول فتوحاته: برقة ونفوسة، افتتحها على يد أخيه شمس الدولة، في سنة ثمان وستين، ثم في سنة تسع افتتح اليمن، وقبض على المتغلب عليها عبد النبي بن مهدي، ثم في سنة سبعين سار من مصر إلى دمشق بعد وفاة نور الدين، مظهرا أنه يقيم نفسه أتابكا لولد نور الدين، لكونه صبيبا، فدخلها يلاطفه، ونزل بالبلد بدار أبيه المعروفة بدار العقيقي التي هي اليوم المدرسة الظاهرية، ثم تسلم القلعة وصعد إليها وأخرج الصبي من الملك، وصار هو سلطان مصر والشام واليمن والحجاز ثم سار قاصدا حماة وحمص، ولم يشتغل بأخذ قلعتها ثم نازل حلب وهي الوقعة الأولى، وفيها سير السلطان غازي بن مودود أخاه عز الدين مسعودا في جيش كبير لحربه، وكان بها ولد نور الدين فترحل عن حلب ونزل على قلعة حمص فأخذها وهو مع ذلك يظهر حسن المقاصد، وأنه قاصد إعزاز الدين وإنقاذ البلاد من الفرنج، وتسهيل أمور المسلمين.

وجاء عز الدين مسعود فأخذ معه عسكر حلب، وصار إلى قرون حماة، وأخذ صلاح الدين يراسلهم دواما للصلح، كيلا يقع سيف بين

المسلمين، وهم يراسلونهم، وهم يظنون أنه يطلب الصلح لضعفه عنهم، وهم لا يعرفون ما عليه الرجل من حسن النية، وحقق عندهم ماظنوه كثرة عساكرهم وقلة من كان مع صلاح الدين من العسكر في ذلك الوقت، فلما أبوا إلا المشاجرة، معتقدين أن المصاف معهم يحصل غرضهم، وأعجبتهم كثرتهم، لاقاهم صلاح الدين، فكانت الهزيمة عليهم، وأسر صلاح الدين منهم خلقاً، ثم ساق وراءهم، ونزل على حلب ثانياً فصالحوه وأعطوه المعرة، وكفر طاب، وبارين.

وجاء صاحب الموصل غازي، فحاصر أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار، لكونه انتمى إلى صلاح الدين، ثم صالحه لما بلغ غازي كسر أخيه مسعود، ونزل بنصيبين، وجمع العساكر، وأنفق الأموال وعبر الفرات وقدم حلب، فخرج إلى تلقيه ابن عمه الصالح إسماعيل بن نور الدين، وأقام على حلب مدة.

ثم كانت وقعة تل السلطان، وهي منزلة بين حلب وحماة، جرت بين صلاح الدين وصاحب الموصل، في سنة إحدى وسبعين، فنصر صلاح الدين ورجع غازي، وعدى الفرات بعد ما استأصل صلاح الدين كثيراً من خيامه وأمواله، وفرقها في جماعته، ثم سار صلاح الدين، فتسلم منبج، وحاصر قلعة أعزاز، ثم نازل حلب ثالثاً وأقام عليها مدة، فأخرجوا ابنة صغيرة لنور الدين إلى صلاح الدين، فسألته أعزاز فوهبها لها، ثم عاد إلى الديار المصرية، واستتاب بدمشق أخاه شمس الدولة تورانشاه، وكان قد عاد من اليمن، وكانت هذه السفارة منه إلى الشام مما نقم عليه ظاهراً، للإساءة فيها إلى ولد نور الدين، وهو ابن مخدومه الذي أنشأه وأحسن إليه، وقيامه على بيت الملك والعز قبله، وهما صاحب الموصل وأخوه، غير أن الحال بالآخرة تبين أن الله تعالى قد أراد إعزاز دينه على يد هذا الرجل، وأنه لا يتم للمسلمين أمر بدون سلطان قاهر قادر على استئصال شأفة الفرنج في ذلك الوقت، يجتمع عليه المسلمون

ولا تتفرق عنه كلمتهم، ويكون هو في نفسه جديرا بذلك، وأبى الله أن يكون في ذلك العصر إلا صلاح الدين.

فلما وصل إلى القاهرة عائدا من الشام بعد ما فعل ما رأيت مجمله دون مفصله، وفي تفاصيله شرح كبير أحلناك على كتبه، خرج إلى الفرنج في سنة ثلاث، والتقاهم على الرملة، فانكسر المسلمون يومئذ، وثبت صلاح الدين وتحمز بمن معه، ثم دخل إلى مصر، ولم شعث العسكر، ثم عاد إلى الشام ومملك حلب وغيرها من البلاد، وعظمت الشوكة، ثم توجه لمحاصرة الفرنج بالكرك، وجاء أخوه العادل من مصر، وكان قد استنابه عليها، فسير صلاح الدين تقي الدين عمر، ابن أخيه، ليحفظ مصر، وأعطى أخاه العادل حلب بعد أن كان بها ولده الظاهر بن صلاح الدين، وقدم الظاهر من حلب، ثم أعاد العادل إلى مصر والظاهر إلى حلب، ثم نزل على الموصل، وترددت الرسل بينه وبين صاحبها عز الدين، ثم مرض صلاح الدين فرجع إلى حران، واشتد مرضه بحيث أيسوا منه وحلفوا لأولاده بأمره، والله يريد حياته ليتم إعزاز دينه، فعوفي، ومر بحمص وقد مات بها ابن عمه محمد بن شيركوه، فأقطعها لولده شيركوه، ثم استعرض التركية، فأخذ أكثرها، وكان عمر شيركوه اثنتي عشرة سنة، ثم إن شيركوه هذا الشاب حضر بعد سنة عند صلاح الدين فقال له: أين بلغت في القرآن؟ فقال: إلى قوله تعالى: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا). (النساء ١٠).

فعجب الحاضرون من ذكائه، وقيل: إن صلاح الدين إنما أخذ الأموال ليحفظها لهذا الشاب.

وفي سنة ثلاث وثمانين

افتتح صلاح الدين بلاد الفرنج، وأسر ملوكهم، وكسرههم على حطين، وتوالت عليه الفتوحات وأنقذ البيت المقدس منهم، وافتتحه وأعز الدين.

ومما اقتلعه من يد الفرنج طبرية، وقتل وأسر في ذلك اليوم أكثر من أربعين ألفاً، وتسلم قلعتها، وأحضر إليه صليب الصلبوت، وضرب بين يديه في مخيمة أعناق مائتي فارس من عظماء الفرنج.

ثم افتتح مدينة عكا، وكانت من أعظم حصونهم وأكبر مدنها، وأقام بها الخطبة الإسلامية، ثم افتتح البيت المقدس وغيره، وأخلى مابين الشام ومصر من الفرنج، وهذا عداد ما يحضرنا من فتوحاته من أيدي الفرنج:

قلعة أيله. طبرية. عكا. القدس. الخليل. الكرك. الشوبك. نابلس. عسقلان. بيروت. صيدا. بيسان. غزة. لد. حيفا. صفورية. الفولة. معليا. الطور. اسكندرونة. قلنسوة. يافا. أرسوف. قيسارية. جبلة. يبنى. صرفند عفر بلا. اللجون. نجد قاقون. مجدل. يابا. تل الصافية. بيت نوبا. النظرون. الجيب. البيرة. بيت لحم. يازور. حصن الدير. دمرا. قلفيلية. هريث. الزيب. الوعيرة. الهرمز. معليا. العازرية. نقوع. الكرمل. مجدل. الطار. المعبر في جبل عاملة. والشقيف. سبسطية. ويقال: بها قبر زكريا. وجبيل. وكوكب. وأنطرطوس. واللاذقية. وبكسراثيل. وصهيون. وجبلة. قلعة العيد. وقلعة الجماهرية. وبلاطنس. والشغر. وبكاس. وسرمانية. وبرزية. ودريساك. وبغراس. وكانا كالجناحين لأنطاكية. ومدينة صفد.

وكل هذه مدائن منيعة، وأكثرها اليوم قرى كبار، ومنها مدائن كثيرة باقية إلى الآن.

ونازل صور مدة ولم يقدر له فتحها، وله مصافات يطول شرحها،
وافتح كثيرا من بلاد النوبة من يد النصارى.

ومن تأمل الرسائل الفاضلية رأى العجب من تأثيرات هذا الرجل في
الاسلام، ومن شدة بأسه وشجاعته.

وكانت مملكته من الغرب إلى تخوم العراق، ومعها اليمن والحجاز،
فملك ديار مصر بأسرها، مع ما انضم إليها من بلاد المغرب والشام
بأسرها، مع حلب وماوالاها، وأكثر ديار ربيعة وبكر والحجاز بأسره،
واليمن بأسره، ونشر العدل في الرعية، وحكم بالقسط بين البرية، مع
الدين المتين والورع والزهد والعلم، كان يحفظ القرآن و«التنبيه»
و«الحماسة».

قال الموفق عبد اللطيف: رأيت السلطان صلاح الدين على القدس،
فرأيت ملكا عظيما يملأ القلوب روعة، والعيون محبة، قريبا وبعيدا،
سهلا محببا، وأصحابه يتشبهون به، يتسابقون إلى المعروف، كما قال
تعالى: (ونزعنا ما في صدورهم من غل) (الأعراف ٤٣) وأول ليلة حضرته
وجدت مجلسا حفلا بأهل العلم، يتذكرون في أصناف العلوم، وهو
يحسن الاستماع والمشاركة، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق،
ويتفقه في ذلك، وكان مهتما في بناء سور القدس وحفر خندقه، يتولى
ذلك بنفسه، وينقل الحجارة على عاتقه، ويتأسى به جميع الأغنياء
والفقراء، فيركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر، ويأتي داره
فيمد السباط ثم يستريح، ويركب العصر ويرجع في ضوء المشاعل،
ويصرف أكثر الليل في تدبير ما يعمل به نهارا، وكان يحفظ «الحماسة» ويظن
أن كل فقيه يحفظها. انتهى مختصرا.

وقد وثبت عليه الاسماعيلية مرة فجرحوه وسلمه الله، وهو الذي ابنتى
قلعة القاهرة على جبل المقطم.

وفتح من بلاد المسلمين: حران، وسروج، والرها، والرقعة، والبيرة، وسنجار، ونصيبين، وآمد، وملك حلب والبوازيح، وشهرزور، وحاصر الموصل إلى أن هادنه صاحبها عز الدين مسعود، ودخل في طاعته، وكانت هذه عادته، إذا دخل أحد في طاعته لا يقابله إلا بالإحسان.

وفتح أيضا من بلاد الشرق: خلاط، على يد ابن عمه تقي الدين، فهذا ما افتتحه من بلاد الشرق.

واستولى أيضا على افريقية وفتح عسكره مدينة طرابلس الغرب، وكسر عسكر تونس، وخطب بها لبني العباس، وافتتح بلاد اليمن، قيل: ولو لم يقع الخلف بين عسكره الذين جهزهم إلى الغرب لملك الغرب بأسره.

ولم يختلف عليه مع طول مدته أحد من عسكره على كثرتهم، وكان الناس يأمنون ظلمه لعدله، ويرجون رفته لكثرتهم، ولم يكن لمبطل ولالصاحب هزل عنده نصيب.

وكان إذا قال صدق، وإذا وعد وفى، وإذا عاهد لم يخن، وإذا نازل بلدا وأشرف على أخذه ثم يطلب أهله الأمان يؤمنهم، وكان جيشه يتألمون لذلك، لفوات حظهم، ولايسعهم إلا وفاقه وامثال أمره.

وكان رقيق القلب جدا، وربما حلق على مدينة وأحاط بها، فسمع بكاء الحريم فتركها، وإنما يفعل ذلك مع المسلمين.

فمن كتاب فاضلي في فتوح حمص «لما أحذقت العساكر المنصورة بالسور العاصم، إحذاق السوار بالمعاصم، وطارت السهام إلى أوكارها من الضلوع، وبرقت الأسننة وكأنها زيد بحار الدموع، حصحص الحق، واتسع الخرق، وعلم ان ماأراده الخالق لايرده الخلق، فارتفع الضجيج،

وعلا تحت العجاج العجيج، وأدركتنا رقة رفضت من أيدينا الرقاق،
وخشية عنت لنا أعنة الفساق، فرفعنا على الأسوار أعلاما منشورة،
بالكف والإمساك مأمورة، ووضعت الحرب أوزارها، وحلت الأمانة
أزرارها، وشفعنا الوجوه المستورة بالخفر من نسوانها، في الوجوه المكشوفة
بالمعصية من فرسانها».

وربما حاصر قوما ولم يمنع الميرة عنهم، وجرى معهم على كذبهم
ليأخذهم بالسهولة ثم يتبين له غدوهم وكذبهم، وهو مع ذلك يحلم
عنهم، ويراعي مصلحة الدين، كما اتفق له في حمص، وقد افتتح المدينة
وعصت عليه القلعة ولم يمنع الميرة عن أهلها، ثم لما تبين له حالهم لم
يبادر إلى الهدم مع مآفيه من سرعة نصرته، خشية على القلعة لكونها من
حصون المسلمين، وطاول بهم الأمر إلى أن تيسر له فتحها.

فمن كتاب فاضلي عن السلطان وهو محاصر قلعة حمص، وقد بلغه
أن أهلها استنجدوا عليه بالفرنج: «وأمرنا في القلعة بأن لا يضيق لها
خناق، ولا يضعف لأهلها أرماق، ولا يمنع البيع والشراء والانتقال،
ويفسح لها مالا يفسح فيه من يريد تثقيل وطأة الحصار، وكان من
استدعائهم الفرنج ماكان، وهان بفضل الله تعالى من أمرهم ماهان».

ثم أخذ يصف القلعة المشار إليها بكونها «نجما في سحاب، وعقابا في
عقاب، وهامة لها الغمامة عمامة، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال
منها قلامة، عاقدة حبوة، صالحها الدهر على أن لا يجلبها بفرعه، عاقدة
عصمة، صافحها الزمن على أن لا يروعها بخلعة، فاكتنفت بها عقارب،
لا تطبع طبع حمص في العقارب، وضربتها بالحجارة، فأظهرت العداوة
المعلومة بين الأقارب، ولم تكن غير ثالثة (من الجد إلا وقد أثرت فيها
جدريا بضرها) ولم نصل إلى السابع إلا والبحر أتى ينذر بنقبتها، واتسع

الخرق على الراقع، وسقط سعدها عن الطالع، إلى مولد من هو إليها
طالع، وفتحت الأبراج فكانت أبوابا، وسيرت الجبال منها فكانت سرايا،
فهناك بدت نقوب.

.....»

يرى قائم من دونها ما وراءها»^(١).

ومن الكتب والمراسيم عنه

كتب في النهي عن الخوض في الحرف والصوت: (لئن لم ينته المنافقون
والذين في قلوبهم مرض) (الأحزاب ٦٥) الآية، خرج أمرنا إلى كل قائم في
صف، أو قاعد في أمام وخلف، أن لا يتكلم في الحرف بصوت، ولا في
الصوت بحرف، ومن يتكلم بعدها كان الجدير بالتكليم: (فيحذر الذين
يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) (النور ٦٣)
وسأل النواب القبض على مخالف في هذا الخطاب وبسط العذاب،
ولا يسمع لمتفقه في ذلك تحرير جواب، ولا يقبل عن هذا الذنب متاب،
ومن رجع إلى هذا الإيراد بعد الإعلان وليس الخبر كالعيان، رجع أخسر
من صفقة أبي غبشان، وليعلن بقراءة هذا الأمر على المنابر، ليعلم به
الحاضر البادي، ويستوي فيه البادي والحاضر، والله يقول الحق وهو
يهدي السبيل.

قلت: لاشك أن هذا الفصل من كلام القاضي الفاضل.

وهذه وقائع شتى

من ابتداء دخوله إلى مصر قبل أن يتسلطن وإلى أن استأثر الله بروجع
الطاهرة، مختصرة مقتصرًا فيها على عيون الأخبار.

في سنة أربع وستين وخمسمائة

كان مسيرا أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين إلى مصر، المسير الثالث، وذلك أن الفرنج قصدت الديار المصرية في جموع كثيرة، وكان الملك نور الدين من جهة الشمال ونواحي العراق، فطلعوا من عسقلان، وأتوا إلى بلبس، فحاصروها وملكوها واستباحوها، ثم نزلوا على القاهرة فحاصروها، فأحرق شاور مصر خوفا من الفرنج، وبقيت النار فيها أربعة وخمسين يوما، فلما ضايقوا القاهرة وضعف المسلمون عنهم بعث إلى ملكهم يطلب الصلح على ألف ألف دينار، يعجل له بعضها، فأجابه ملك الفرنج، واسمه مري، إلى ذلك وحلف له، فحمل إليه شاور مائة ألف دينار، وماطله بالباقي، وكاتب في ذلك الملك العادل نور الدين يستنجد به، وسود كتابه وجعل في طيه ذوائب النساء، وواصل كتبه يستحثه، وكان بحلب، فساق أسد الدين من حمص إلى حلب في ليلة.

قال القاضي بهاء الدين ابن شداد: قال لي السلطان صلاح الدين: كنت أكره الناس للخروج إلى مصر هذه المرة، وهذا معنى قوله: (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) (البقرة ٢١٦).

وقال ابن الأثير: إن صلاح الدين قال: لما وردت الكتب من مصر إلى نور الدين أحضرني وأعلمني الحال، وقال: تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسول إليه تحثونه على الحضور، ففعلت، فلما سرنا عن حلب ميلا لقيناه قادما، فقال له نور الدين: تجهز، فامتنع للخوف من غدرهم أولا، وعدم ما ينفقه في العساكر آخرا، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال له: إن تأخرت عن مصر سرت أنا بنفسي، فإنها إن ملكها الفرنج لا يبقى معهم بالشام مقام، فالتفت إلي عمي وقال: تجهز يا يوسف، فكأنما ضرب قلبي بسكين، فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر

ماست إليها، فلقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق مالا أنساه، فقال عمي لنور الدين: لابد من مسيره معي، وارسم له، فأمرني نور الدين وأنا استقبله، فانفض المجلس، ثم قال نور الدين: لابد من مسيرك مع عمك، فشكوت الضائقة، فأعطاني ما تجهزت به، وكأننا أساق إلى الموت، وكان نور الدين رجلا مهيبا، فسرت مع عمي، فلما توفي أعطاني الله من الملك مالا كنت أتوقعه، انتهى.

فجمع أسد الدين الجيوش، وسار إلى دمشق، وعرض بها الجيش، وتوجه إلى مصر في جيش عرمرم، فقبل: كانوا سبعين ألف فارس وراجل فتقهقر الفرنج لمجيئه، ودخل القاهرة في سابع ربيع الآخر، وجلس في الدست، وخلع عليه العاضد خلع السلطنة وولاه وزارته، وقام شاور بضيافته وضيافة عسكره وتردد إلى خدمته، فطلب منه أسد الدين مالا ينفقه على جيشه، فمأطله، فبعث إليه الفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري، يقول: إن الجيش طلبوا نفقتهم، وقد ماطلتهم بها وقد تغيرت قلوبهم، فإذا أتيتني فكن على حذر منهم، فلم يؤثر هذا عند شاور، وركب على عادته، وأتى أسد الدين مسترسلا وقيل: إنه تمارض فجاء شاور يعوده، فاعترضه صلاح الدين وجماعة من الأمراء النورية، فقبضوا عليه، فجاءهم رسول العاضد يطلب رأس شاور، فذبح وحمل إليه في سابع عشر ربيع الآخر، ثم لم يلبث أسد الدين أن حضرته المنية بعد خمسة وستين يوما، فقلد العاضد السلطان الملك الناصر صلاح الدين بيوسف السلطنة، ولقب الملك الناصر، وكتب تقليده القاضي الفاضل، بعد ما كان وقع خلف كبير عند الفراغ من عزاء أسد الدين فيمن يكون سلطانا، ثم اتفقت كلمة الأمراء النورية على صلاح الدين، قال العماد الكاتب: وألزموا صاحب القصر، يعني العاضد، بتوليته. وقال القاضي: كانت الوصية إلى صلاح الدين من عمه، فلبس خلعة السلطنة بالقصر بين يدي العاضد، وقبل يده، وجاء إلى دار الوزارة، وإن شئت قلت: دار السلطنة فإن الوزارة عند الفاطميين هي السلطنة اسما ومعنى،

وجلس في دست الملك، وشرع في تركيب السلطنة وترتيبها، فأول مادهم أمر الخادم الخصي الذي كان يلقب مؤتمن الخلافة، فإنه شق العصا باطنا، وائتمر وتنمر، وانضمت إليه طوائف من أحبث الروافض، وكاتبوا الفرنج خفية، فاتفق أن تركمانيا عبر بالبئر البيضاء، فرأى نعلين جديدين مع إنسان، فأخذهما وجاء بهما إلى صلاح الدين، فوجد في البطانة خرقة مكتوب فيها: إلى الفرنج من القصر، فقال: دلوني على كاتب هذا الخط، فدل على يهودي، فلما حضر تلفظ بالشهادتين، واعترف أنه كتب ذلك بأمر الطواشي المشار إليه، واستشعر الطواشي الخبر، فلزم القصر، وأعرض عنه صلاح الدين إلى أن خرج إلى قرية له، فأنهض له السلطان صلاح الدين من أخذ رأسه في ذي القعدة، وقرر مكانه بهاء الدين قراقوش، فصار نحتوما على القصر، لا يدخل القصر شيء ويخرج إلا بمرأى منه ومسمع.

فلما قتل الخادم غار السودان وثاروا، وكانوا أكثر من خمسين ألف مقاتلة، وقد قدمنا أنهم كانوا نحو مائة ألف، وكل قاله المؤرخون، ولعل الجمع بينهما أن الخمسين ألفا كانوا مقاتلة فرسانا، والباقون كانوا رجالة، لا يضمهم ديوان، وأقبلوا كقطع الليل المظلم، فخرج إليهم من عسكر صلاح الدين الأمير أبو الهيجاء، واتصل الحرب بين القصرين، ودأب الحرب بينهم يومين، ثم كانت الدائرة على السودان، وأخرجوا إلى الجيزة، وكانت لهم محلة تسمى المنصورة، فخربت وحرقت، ثم بلغ نور الدين نبأ هذه الأخبار الطيبة، فانتحى صدره، وأمد صلاح الدين بأخيه شمس الدولة تورانشاه.

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

وفيهما نزل الفرنج على دمياط في صفر، وحاصروها أحدا وخمسين يوما، ثم رحلوا خائبين، لأن نور الدين وصلاح الدين أجلبا عليهم برا وبحرا،

وأنفق صلاح الدين أموالا كثيرة، وقال: مارأيت أكرم من العاضد أرسل لي مدة مقام الفرنج على دمياط ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها.

وفيهما دخل نجم الدين أيوب أبو صلاح الدين مصر، فخرج العاضد بنفسه إلى لقاءه، وتآدب ابنه صلاح الدين معه وعرض عليه منصبه.

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسة

وفيهما عمل صلاح الدين بمصر مدرستين للشافعية والمالكية، وخرج بجيوشه فأغار على الرملة وعسقلان، وهجم على ربض غزة ورجع إلى مصر، وجهاز بعض جنده إلى قلعة أيلة، فغزوها في المراكب وافتتحوها واستباحوا الفرنج فيها قتلا وسبيا، وكان فتح هذه القلعة واستعادتها من الفرنج أعظم النعم على المسلمين، فإنها كانت قلعة منيعة وكانت الفرنج قد اتخذوها هي والكرك سبيلا إلى الإحاطة بالحرمين الشريفين، فقد الله فتحها على يد هذا السلطان، رحمه الله.

ومن كتاب فاضلي من السلطان إلى الخليفة يعدد فيه مال السلطان من الفتوحات ومن جهاد الفرنج: ومنها قلعة بثغر أيلة بناها العدو في البحر، ومنها المسلك إلى الحرمين الشريفين بحيث كادت القبلة يستولى على أصلها، والمشاعر يسكنها غير أهلها، ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم يتطرق إليه الكفار، في كلمات قالها.

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسة

فاستفتح السلطان الخطبة في الجمعة الأولى منها بجامع مصر لبني العباس، وأقيمت الخطبة العباسية في الجمعة الثانية بالقاهرة، وأعقب ذلك موت العاضد في يوم عاشوراء بالقصر، وجلس السلطان للعزاء، وأغرب في الحزن والبكاء، وانقرضت دولة الفاطميين، وكان لها أكثر من

مائتي سنة، وتسلم السلطان القصر بما فيه من خزائنه وذخائره واحتاط على آل القصر فجعلهم في مكان برسهم، وقررت لهم المؤونه وجمعت رجالهم واحترز عليهم، ومنعوا من النساء لئلا يتناسلوا، وذكر المؤرخون من نفائس القصر وذخائره مالا نزيل بذكره، وانتقل الملك العادل سيف الدين أبو بكر إلى القصر بمرسوم أخيه، فاستقر في نيابة السلطان وكتبت الكتب إلى بغداد بالبشارة، وأعاد الجواب والخلة الفائقة العباسية إلى السلطان صلاح الدين.

وفيها ، قال ابن الأثير: حدث ما أوجب نوره نور الدين عن صلاح الدين، وذلك أن نور الدين أرسل إليه يأمر بجمع الجيش والمسير لمنازلة الكرك ليحيى هو بجيشه ويحاصرنا، فكتب إلى نور الدين يعرفه أنه قادم، فرحل على قصد الكرك وأتاها وانتظر وصوله، فأتاه كتابه يعتذر باختلال البلاد، فلم يقبل عذره، وكان خواص صلاح الدين خوفوه من الاجتماع به، وهم نور الدين بالدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها، فبلغ ذلك صلاح الدين، فجمع أهله وأباه وخاله الأمير شهاب الدين الحارمي، وسائر الأمراء وأطلعهم على نية نور الدين واستشارهم، فسكتوا، فقال ابن أخيه تقي الدين عمر: إذا جاء قاتلنا، ووافقه غيره من أهله، فشتمهم نجم الدين أيوب واحتد، وكان ذا رأي ومكر، وقال لتقي الدين: اسكت، وزبره وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا خالك أتظن أن في هؤلاء من يريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا، فقال: والله لو رأيت أنا وهذا نور الدين لم يمكننا إلا أن ننزل ونقبل الأرض، ولو أمرنا بضرب عنقك لفعلنا، فما ظنك بغيرنا؟ فكل من تراه من الأمراء لو رأى نور الدين لما وسعه إلا الترجل، وهذه البلاد له، وإن أراد عز لك فأى حاجة له إلى المجيء؟ بل يطلبك بكتاب، وتفرقوا، وكتب أكثر الأمراء لنور الدين بما تم، ولما خلا بولده قال: أنت جاهل تجمع هذا الجمع وتطلعهم على شرك، ولو قصدك نور الدين لم تر أحدا منهم، ثم كتب إلى نور الدين بإشارة والده نجم الدين يخضع له، ففتر عنه.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسة

فأرسل السلطان فيها قراقوش مملوك ولد أخيه تقي الدين عمر إلى جبال نفوسة، ومعه طائفة من الأتراك، فلما وصل إلى الجبال استصحب معه منها بعض المتقدمين، ونزل على طرابلس الغرب، فحاصرها ثم فتحت، فاستولى عليها قراقوش وسكنها وكثرت عساكره وفيها جهز السلطان شمس الدولة إلى برقة فافتتحها على يد غلام له تركي.

ثم بلغ السلطان أمر ابن مهدي الخارج باليمن وماهو عليه من اختلال العقيدة، فجهز أخاه شمس الدولة، فافتتح اليمن وتملكها.

ثم سار السلطان بنفسه من مصر يريد اقتلاع مدينة الكرك من الفرنج وبدأ بها لقرها إليه، وكان من الوهن في الإسلام والعظمة في الدين استيلاء الملاحين على الكرك وعلى قلعة أيلة، فإنهم يمنعون الحاج وأشد من ذلك ما يخشى على الحرمين الشريفين منهم، إذ لم يكن بينهم وبينها حاجز غير لطف الله، وقصدهما مرات ثم يندفعون بمشيئة الله من غير دفاع من البشر، وكانت الكرك تزيد على قلعة أيلة بمنع القوافل السائرة بين الشام ومصر، فإنها كانت الدرب، وأما غزة والرملة وماحواليها فكان الفرنج لا يمكنون مسلماً أن يمر بهما، فورد عليهما وحاصرهما وقاتل الفرنج، ولم يفتحها في هذه السنة، ورجع إلى مصر.

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسة

قال ابن الأثير جهز السلطان أخاه توران شاه إلى بلاد النوبة، فافتتح منها ماشاء الله، فلما عاد جهزه إلى اليمن بقصد عبد النبي صاحب زبيد، فطرده عن اليمن وملك زبيد وأسر عبد النبي وزوجته الحرة، وكانت صالحة كثيرة الصدقة، وعذب عبد النبي واستخرجت منه أموال، ثم سار

توران شاه إلى عدن، وملكها ناشر، فأسر وهزم، ثم سار فافتتح من حصون اليمن قلعة تعرف بقلعة الجند.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي : يقال: افتتح ثمانين حصنا ومدينة باليمن وماحواليها.

وقد تقدم في السنة قبلها إرسال تورانشاه، وهو شمس الدولة إلى اليمن ووقعة النوبة فقتل، والله أعلم في أي الستين كان إرساله.

وفي هذه السنة وصل الموفق ابن القيسراني إلى مصر رسولا من الملك نور الدين يطالب السلطان صلاح الدين بحساب جميع ماحصله من أرياع البلاد، ولم يعلم نور الدين بتفاصيل علو شأن صلاح الدين وأنه مستول على أعظم ممافي يد نور الدين، فصعب ذلك على صلاح الدين، وقيل: إنه أراد شق العصا، ثم ذكر لنور الدين حقوقه وإحسانه، وأمر النواب بالحساب، وعرضه على ابن القيسراني، وأراه جرائد العساكر بالإقطاعات، وأعادته إلى نور الدين ومعه الفقيه عيسى وهدية عظيمة، وهي ختمة بخط ابن البواب، وختمة بخط مهلهل، وختمة بخط الحاكم البغدادي، وربعة مكتوبة بالذهب بخط فارسي، وربعة عشرة أجزاء بخط راشد، وثلاثة أحجار بلخش، وستة قضبان زمرد، وقطعة ياقوت وزن سبعة مثاقيل، وحجر أزرق ستة مثاقيل، ومائة عقد جوهر وزنها ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالا، وخمسون قارورة دهن بلسان وعشرون قطعة بلور وأربع عشر قطعة جزع، وإبريق يشم، وطشت يشم، وصحون صيني، وزبادي أربعون، وكرتان عود قهاري، وزن إحداهما ثلاثون رطلا بالمصري، والأخرى أحد وعشرون، ومائة ثوب أطلسي، وأربعة وعشرون بقيارا مذهبة، وخمسون ثوب حرير وحلة فلغلي مذهب، وحلة مرايش صفراء، وغير ذلك من القماش الذي يكثر عنده، وقيمة القماش على ماذكر مائتان وخمس وعشرون ألف مثقال ذهب، ومن الخيل والبغال

والجواري والسلاح شيء كثير، ومن المال خمسة أحمال، ولم يصل شيء من ذلك إلى نور الدين، لأنه مات قبل وصوله.

ولما مات نور الدين طمعت الفرنج وتحركوا بالسواحل، وسلطن الشاميون الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، وكان عمره نحو عشر سنين، فاستنجد بالسلطان صلاح الدين صاحب مصر، ونزل الفرنج على بانياس، وصالحهم أمراء دمشق على مال وأسارى يطلقون، فلما بلغ ذلك صلاح الدين انزعج له، وكتب إلى الشاميين يوبخهم، وكتب إلى شيخ الشافعية شرف الدين ابن أبي عصرون يخبره، أنه لما أتاه كتاب الملك الصالح تجهز للجهاد وخرج وسار أربع مراحل، جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذل الاسلام على يد من اقتلعها من دفع القطيعة والأسارى، وسيدنا الشيخ أول من جرد لسانه الذي تغمد له السيوف وتجرد.

ولما بالغ صلاح الدين في توبيخ الأمراء، وكان ابن المقدم أكبر أمراء دمشق خشى من قدوم صلاح الدين إلى الشام، وأشاع أن صلاح الدين يريد انتزاع دمشق من ولد مخدومه نور الدين، وكتب إلى صلاح الدين: «لا يقال عنك إنك طمعت في بيت من غرسك، ورباك وأسسك، وفي دست ملك مصر أجلسك» ثم تعطف له وترفق ويقول: «وما يليق بحالك، غير فضلك وإفضالك».

فكتب إليه صلاح الدين: «إنا لانبؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم، ولانختار للبيت الأتابكي، أعلاه الله، إلا ما حفظ أصله وفرعه، فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة، ونحن في واد والظانون بنا سوء الظن في واد».

ثم دخلت سنة سبعين وخمسة

وقد تزايد طمع الفرنج في دمشق بموت نور الدين، فرأى صلاح

الدين من الخزم جمع المسلمين على سلطان واحد يقيم الملة وينصر
الشريعة، وأنه ذلك الواحد الذي تعقد عليه الخناصر، وأن الاسلام محتاج
إليه، وصار الحاسدون والجاهلون بأحكام الشريعة يعيرون منه قصده
لأخذ دمشق، ويقولون: كيف يسلب ولد استاذه نعمته، وينزع ملكه،
وهم كما قال: «في واد» فإنه فيما يغلب على الظنون الصادقة إنها قصد لم
شعث الاسلام وقيام الدين، وظهر ذلك على يده من بعد، فخرج من
مصر بجيوش لا تحصى عددها، واستخلف أخاه الملك العادل نائبا بها،
ووصل إلى بصرى في رابع عشرين ربيع الآخر، فخرج إليه صاحبها منقادا
لخدمته، ثم تتابع عسكر الشام ملاقين مستبشرين، ونزل بجسر الخشب
في الثامن والعشرين، وقد تكاثرت العساكر وازدحم الملاقون، وأصبح
لدخول دمشق فعارضه عدد من الرجال فدعستهم عساكره المنصورة،
وصدمتهم خيوله وعزماته المأمورة، ودخل البلد وملكها بلا قتال، ونادى
من ساعته بإطابة النفوس وإزالة المكوس، وكانت الولاية في دمشق قد
سأت، والمكوس التي رفعها نور الدين قد أعيدت، فأعاد صلاح الدين
الحق إلى نصابه، وصارت دمشق مثل مصر وكلاهما في مملكته.

ثم خرج إلى حمص فنازلها، ونصب المجانيق على قلعتها ولم يملكها،
وترحل عنها إلى حماة فملكها في جمادى الآخرة، ثم سار إلى حلب
وحاصرها إلى آخر الشهر، وبها الصالح اسماعيل ولد نور الدين، واشتد
بها الحصار، وهذه هي الفعلة التي نقت على صلاح الدين، فالله أعلم
بنيته، وأنه أساء العشرة في حق الصالح ابن نور الدين، بحيث استعان
الصالح عليه بالباطنية، ووعدهم بالأموال، فقتلوا من أمراء صلاح الدين
الأمير خمارتكين، وخلقا، وجرحوا صلاح الدين ثم أمسكهم وقتلهم عن
آخرهم، ورجع إلى حمص فحاصرها بقية رجب وتسلمها بالأمان في
شعبان، ثم عطف إلى بعلبك فاستلمها، ثم رد إلى حمص وقد اجتمع
عسكر حلب وكتبوا إلى صاحب الموصل يستعينون به على صلاح الدين،
فجهز إليهم جيشه وأمدهم بأخيه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي،

فأقبل الكل إلى حماة وقد استقرت لصلاح الدين فحاصروها، فسار إليهم صلاح الدين فالتقاهم على قرون حماة فكسرهم أقبح كسرة، ثم سار إلى حلب فوقع الصلح بينه وبين ابن زنكي، على أن يكون له إلى آخر بلد حماة والمعرة، وأن يكون لولد نور الدين حلب وجميع أعمالها، وتحالفوا ورد إلى حماة، وجاءته رسل الخليفة المستضيء بالخلع والهدايا والتهنئة بالملك، ثم سار إلى حصن بارين فحاصره ثم تسلمه.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسةائة

وفيهما كان وقعة تل السلطان بنواحي حلب، وذلك أن عسكر الموصل نكثوا أيمانهم، ووافوا تل السلطان في جموع كثيرة وعليهم السلطان سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي، فالتقاهم السلطان صلاح الدين في جمع قليل فهزمهم وأسر كثيرا منهم وحقق الدماء، ثم أحضر الأمراء الذين أسره فمّن عليهم وأطلقهم.

ثم سار صلاح الدين إلى منبج وأخذها في شوال من ينال بن حسان المنبجي، وكان نور الدين قد أعطاه لينال عندما انتزعها من أخيه غازي ابن حسان، وصعد الحصن وجلس يستعرض أموال ابن حسان صاحبها وذخائره فكانت ثلاثمائة ألف دينار، ومن أواني الذهب والفضة والذخائر والأسلحة ما يناهز ألفي ألف دينار، ورأى على بعض الأكياس والآنية، مكتوبا يوسف، فسأل عن هذا الاسم فقيل: ولد له يحبه اسمه يوسف وكان يدخر له هذه الأموال، فقال السلطان: أنا يوسف وقد أخذت ما خبيء لي.

ثم سار إلى عزاز فنازل قلعتها ثمانية وثلاثين يوما، وقفز عليه وهو محاصرها قوم من الفداوية وجرح في خده وأخذوا فقتلوا ثم افتتح عزاز.

ومن كتاب منه إلى أخيه العادل: «ولم ينلني من الحشيشي الملعون إلا

خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة، انقطعت لوقتها واندملت لساعتها».

ثم سار من عزاز، فنازل مدينة حلب كرة أخرى في نصف ذي الحجة، وأقامت القلعة في حفظها بكل ممكن وصايرها صلاح الدين شهرا.

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسة

وفيها ترددت الرسل في الصلح بين السلطان صلاح الدين والملك الصالح اسماعيل بن نور الدين، فرحل صلاح الدين عن حلب وأبقاها لابن نور الدين، ورد عليه عزاز، وتوجه إلى مصيف بلد الباطنية، فنصب عليها المجانيق، وأباح قتلهم، وخرب بلادهم، فتشفعوا بصاحب حماة شهاب الدين خال السلطان، فسأل السلطان الصلح عنهم، وتوجه عائدا إلى مصر، فوصلها، وأمر ببناء السور الأعظم المحيط بمصر والقاهرة، وجعل على بنايته الأمير قراقوش، ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين، وصرفت عليه أموال جزيلة.

وفيها أمر بإنشاء قلعة الجبل المقطم التي هي الآن دار سلاطين مصر، وجعل على بنائها أيضا قراقوش، ولم يكن السلاطين قبلها يسكنون إلا دار الوزارة بالقاهرة.

ثم سافر إلى الاسكندرية وتردد إلى السلفي، فسمع منه الحديث، ثم عاد إلى مصر وبني تربة الشافعي رضي الله عنه.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسة

وفيها كانت وقعة الرملة، سار السلطان من القاهرة إلى عسقلان

فسبى من الفرنج كثيرا وغنم، وسار إلى الرملة وقد تجمعت عليه الفرنج وحملوا على المسلمين فانهزموا، وثبت السلطان وابن أخيه تقي الدين عمر، ودخل الليل واحتوى الفرنج على أثقال المسلمين، واستشهد من المسلمين جماعة، منهم أحمد ولد تقي الدين عمر، ولم يبق للمسلمين قدرة على ماء ولا زاد وتعسفوا الرمال راجعين إلى مصر.

وفي هذه الواقعة أسر الفقيه عيسى الهكاري أكبر الأمراء، فافتداه السلطان بستين ألف دينار، ودخل السلطان القاهرة بعد ثلاثة عشر يوما، وتواصلت خلفه العساكر ثم عاد السلطان إلى الشام.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسة

وفيها اجتمعت الفرنج عند حصن الأكراد، فسار إليهم السلطان ولم يقع قتال، ثم أغاروا على أعمال دمشق، وجهز لحرهم فرخشاہ ابن أخي السلطان، فالتقاهم وكسرهم وقتل من مقدميهم جماعة منهم هنفري.

قال ابن الأثير: وما أدراك ما هنفري، به كان يضرب المثل في الشجاعة.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسة

وفيها ضربت الطبول ببغداد وزفت البشائر بانتصار السلطان صلاح الدين على الفرنج، وأسر له صاحب الرملة، وصاحب طبرية الكافرين، وهي وقعة مرج العيون.

ومن حديثها أن صلاح الدين كان نازلا تل بانياس بيت سراياه، فلما استهل المحرم ركب فرأى راعيا فسأله عن الفرنج فأخبره بقرهم، فعاد إلى نخيمه وأمر الجيش بالركوب فركبوا، وسار بهم حتى أشرف على الفرنج وهم في ألف قنطارية وعشرة آلاف مقاتل فارس وراجل، فحملوا

على المسلمين فثبتوا لهم، وحملت المسلمون عليهم فولوا الأدبار، فقتل أكثرهم وأسر منهم مائتان وسبعون أسيرا، منهم بادين، وأود مقدم الداوية، وابن بيرزان فاستفك نفسه بمبلغ وبألف أسير من المسلمين، واستفك الآخر نفسه بجملة، وأما أود فجنن في حبس قلعة دمشق، وانهمز من الوقعة ملكهم مجروحا، وأبلى في هذه الوقعة عز الدين فرخشاه بلاء حسنا.

واتفق في يوم الوقعة ظفر أسطول مصر ببطستين وأسروا ألف نفس، فله الحمد على نصره.

وكان قليج أرسلان سلطان الروم طلب حصن رعبان وزعم أنه من بلاده، وإنما أخذه منه نور الدين على خلاف مراده، وأن ولده الصالح اسماعيل قد أنعم به عليه، فلم يفعل السلطان، فأرسل قليج عشرين ألفا لحصار الحصن، فالتقاهم تقي الدين عمر صاحب حماة، ومعه سيف الدين علي المشطوب، في ألف فارس، فهزمهم لأنه حمل عليهم بغتة وهم على غير تعبئة، فضربت كوساته، وعمل عسكره كراديس، فلما سمعت الروم الضجة ظنوا أنهم قد دهمهم جيش عظيم فركبوا خيولهم عريا، وطلبوا النجاة وتركوا الخيام بها فيها، وأسر منهم عددا، ثم من عليهم بأموالهم، وسرحهم، ولم ينزل تقي الدين يدل بهذه النصرة، ولا ريب أنها عظيمة.

وورد بغداد رسول صلاح الدين، وهو مبارز الدين كشطغاي وجلس له ظهير الدين أبو بكر ابن العطار، وبين يديه أرباب الدولة فجاء وبين يديه اثنا عشر أميرا عليهم الخوذ والزرديات، ومع كل واحد قنطارية وعلى كتفه طارقة ملك الفرنج، على القنطاريات سعف الفرنج، وبين يديه أيضا من التحف والنفائس من ذلك صنم حجر طول ذراعين، فيه صناعة عجيبة قد جعل سبابته على شفته كالمبتسم عجبا، ومن ذلك

صينية ملآنة جواهر وضلع آدمي نحو سبعة أثنبار في عرض أربع أصابع، وضلع سمكة طوله عشرة أذرع في عرض ذراعين.

وفيهما جهز السلطان القاضي أبا الفضائل بن الشهرزوري إلى الخليفة ببغداد أيضا بجواهر مثمثة وعشرة أسرى من الفرنج.

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسة

وفيهما توجه السلطان قاصدا بلاد الأرمن وبلاد الروم ليحارب قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان عندما استجار محمد بن قرا أرسلان ابن داود صاحب حصن كيفا بالسلطان على حموه قليج المذكور، ثم صلح الحال بينهما، فنزل السلطان على حصن من بلاد الأرمن، فأخذه وهدمه ثم رجع، فعند وصوله إلى حمص جاءه التقليد والخلع من الخليفة الناصر، فركب بها بحمص، وكان يوما مشهودا، وجاء إلى دمشق وولى عز الدين فرخشاہ نيابة السلطنة بالشام وهو ابن أخيه، ثم توجه السلطان إلى مصر وتوجه منها إلى الاسكندرية، وشاهد ما تجدد بها من السور، وسمع بها الموطاء علي أبي الطاهر ابن عوف.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسة

وفيهما قصد نائب الشام عز الدين فرخشاہ بمرسوم السلطان بلاد الكرك بالعساكر فخر بها، وذلك عندما بلغ السلطان أن اللعين صاحب الكرك سولت له نفسه قصد المدينة الشريفة ليملكها، فلما نهبت بلاده عاد بالخيبة.

وفيهما ظهرت الوحشة بين الخليفة الناصر والسلطان، وذلك أن السلطان لما اشتهر اسمه بالعدل وشدة الوطأة، وخافته النفوس الفاجرة، واستبشرت به الأرواح الطاهرة، وحسده ملوك الأطراف، وأحبوا أن يوقعوا

بينه وبين الخليفة سولوا للخليفة أمورا أوجبت أن يكتب للسلطان يأخذ عليه في أشياء، منها تسميته بالملك الناصر مع علمه أن الإمام اختار هذه التسمية لنفسه، وهذه الواحدة على ندورتها مدفوعة بأن السلطان لقب بالناصر من أيام الخليفة المستضيء قبل ان يلي الناصر الخلافة فكتب له السلطان جوابا فاضليا منه: «والخادم والله الحمد يعدد سوابق في الاسلام والدولة العباسية لايعدها أولية أبي مسلم، لأنه والى ثم وارى، ولاأخرية طغرلبك لأنه نصر ثم حجر، والخادم بحمد الله خلع من كان ينازع الخلافة رداءها، وأساغ الغصة التي ذخر الله للإساعة في سيفه ماءها، فرحل الأسماء الكاذبة الراكبة على المنابر، وأعز بتأييد البراهيمي فكسر الأصنام الباطنة بسيفه الظاهر لا الساتر، وفعل وما فعل للدنيا، ولا معنى للاعتداد بها هو متوقع الجزاء عنه في اليوم الآخر».

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسةائة

فيها افتتح السلطان حران، وسروج، وسنجار، ونصيبين، والرقعة، والبيرة، وأمّد، ونازل الموصل وحاصرها، وبهره مارأى من حصانتها، وجاءه شيخ الشيوخ صدر الدين من قبل الخليفة يتشفع في صاحب الموصل فرحل عنها.

وفيها بعث السلطان أخاه سيف الاسلام طغتكين على نيابة السلطنة بإقليم اليمن بأسره، وأمره بإخراج نواب أخيه تورانشاه بها، فرحل إليها وقبض على متولي زبيد حطان ابن منقذ واخذ منه أموالا جزيلة، وسكن سيف الاسلام في اليمن.

وفيها مات عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب نائب الشام، فبعث السلطان على نيابة دمشق شمس الدولة محمد بن المقدم.

وفيها خرج السلطان بنفسه من مصر غازيا وماتهباً له العود إليها،
وقد عاش بعد ذلك اثنتي عشرة سنة.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة

ورسل الخليفة في كل سنة تحييء غير مرة بالتودد ظاهرا واستعلام
أخبار السلطان باطنا، فلا يرون إلا إماما عادلا لا يصطلي له بنار،
وغضنفرا باسلا لا يقوم لغضبه إلا الواحد القهار، وكتب له السلطان
كتابا فاضليا فيه من أخبار الفرنج: « كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكرا،
وافترضوا من البحر بكرا، وعمروا مراكب حربية شحنوها بالمقاتلة
والأسلحة» (٢).

الكواكبُ الدريّة

في

السيرة النورية

تصنيف

بدر الدين ابن قاضي شُهبة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي .

الحمد لله مالك الممالك وموضح المسالك، وجاعل العدل نجاة من المهالك. أحده وهو المحمود المالك، وأوحده وهو الغني عن المشارك، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهاً لا يزول ملكه ولا يفنى، وملكاً تخصص بالصفات والأسماء الحسنی، حكم فعدل في حكمه، وعلم ما كان وما يكون، فلم يخف شيء عن علمه، وأشهد أن سيدنا محمد ﷺ عبده ونبيه ورسوله وصفيه، الذي رفع به منار الحق، وأرسله رحمة للخلق، وزينه بالصفات الحسان، وأنزل عليه (ان الله يأمر بالعدل والإحسان) ^(١) صلى الله عليه وعلى آله الأجداد وصحبه الأنجاد الذين جاهدوا في حق الله حق جهاده، واجتهدوا رضي الله عنهم في مصالح عباده، وبسطوا بساط العدل في بلاده، وسلّم وكرم، وشرّف وعظم.

وبعد، فإن العدل قوام الدنيا والدين، وسبب صلاح المخلوقين، به تألفت القلوب، والتأمت الشعوب، ولاح الفلاح، وظهر النور والصلاح، واتصلت أسباب النجاح، وهو أحسن ما تزين به الملوك الذين مكنهم الله في أرضه، وأوجب عليهم القيام بفرضه، ولا يوفق إلى صراطه القويم إلا من سبقت له العناية في الأزل القديم. ويكفي ملوك العدل من مزيد الكرامة قول [رسول الله ﷺ] (لما سئلون على منابر من نور) ^(٢) وقوله ﷺ وزاده شرفاً لديه: (أحبّ الناس إلى الله وأدناهم مجلساً منه يوم القيامة إمام عادل، وهو من السبعة الذين يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله) ^(٣) أو كما قال ﷺ وعلى الجملة والتفصيل ففي العدل الخير كله، فسبحان من وفق إليه من سبقت له الحسنی، ومن بوّأه لديه المقام الأسنى، فأضفى عليه من ملابس نعمه الفاخرة، وجمع له بين سعادة الدنيا والآخرة.

ولما كان الملك العادل السعيد، نور الدين الشهيد محمود بن زنكي بن

آق سنقر التركي، سقى الله عهده، ووطأ في الفردوس مهده، وشكر في
مصالح الإسلام سعيه الناجح، وثقل بعظيم ميزانه الزاجح، ممن شاع
فضله واشتهر، وذاع عدله وظهر، وأشرق نوره الساطع وبهر، وسلك من
العدل في الرعايا أحسن السلوك، ويسر الله تعالى له ببركة العدل ما عجز
عنه عظماء الملوك، أحببت أن أذكر طرفاً من سيرته الفاضلة، وأحكامه
العادلة، ومحاسنة الظاهرة، وسجاياه الطاهرة، وأوصافه الزاهرة المشرقة
اشراق الشموس الباهرة، ليقندي بها من نظر إليها ووقف عليها من
أعلام سلاطين الإسلام، الذين كرمت سجاياهم، وشرفت مزاياهم،
ورغبوا في الذكر الجميل، والثواب الجزيل، وحرصوا على نيل السعادة
الكبرى، وأمّلوا حسن الجزاء من الله سبحانه وتعالى في الأخرى.

ورثت هذا الكتاب على سبعة أبواب مشتملة على: أوصافه، وعدله،
وانصافه، ونعوته التي فاق بها على الملوك، وحسن أعماله التي سلك بها
من مناهج الرشاد أحسن السلوك. وهذه فهرست الأبواب:

الباب الأول في ذكر مولده وصفاته، وذكر أفعاله الدالة على حسن
نياته.

الباب الثاني في ذكر عدله الدال على رصانة عقله، ووفور كرمه وفضله.

الباب الثالث في ذكر شجاعته وشهامته، ونجدته، وصرامته، وقوة
عزمه، وحسن رأيه وحزمه.

الباب الرابع في ما فعله في بلاد الإسلام من المصالح، والمساعي
الكفيلة بالمناجح، وما أدخل على المسلمين من المسار، وعمهم به من
المبار.

الباب الخامس في زهده وورعه وعبادته ودينه وعمله المكمل لسيادته،
الشاهد بتأطيد دعائم سعادته.

الباب السادس في نبذة مما مدح به من الأشعار الفائقة، والقصائد
البديعة الرائقة.

الباب السابع في ذكر غزواته العديدة، وفتوحاته السعيدة، وما جرى في
زمانه من الأمور الغريبة، والحوادث العجيبة وسمّيته «الكواكب الدرية في
السيرة النورية». والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب، المرجو لحسن
الثواب، وهوتعالى المؤمل لصلاح الأحوال، وتسديد الأقوال والأفعال.

الباب الأول

في ذكر مولده وصفاته، وأفعاله الدالة على حسن نيته

ولد نور الدين أبو القاسم محمود بن الأتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر التركي السلجوقي مولاهم يوم الأحد عند طلوع الشمس سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسة بـ حلب، ونشأ على الخير والصلاح وقراءة القرآن والعبادة، وقلة المخالطة للجند، وكان أبوه يقدمه على بقية أولاده، ويرى فيه مخايل النجابة، وكان معتدل القامة، أسمر اللون، واسع الجبهة، حسن الصورة، لحيته شعرات في حنكه.

ولما تُوفي والده سنة إحدى وأربعين، وبلغ أسد الدين شيركوه وفاته، ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين، وأشار عليه بالتوجه إلى حلب، وأن يجعلها كرسي مملكته، وذكر أنه إذاملك حلب، اجتمع في خدمته عساكر الشام وقال له: أنا أعلم أن الأمر يصيرُ جميعه إليك لأن ملك الشام يحصل بحلب، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق، فركب وأمر أن يُنادى بالليل في عساكر الشام بالاجتماع، فاجتمعوا وساروا في خدمة نور الدين إلى حلب، فدخلها في سابع شهر ربيع الأول، وجاء أسد الدين إلى تحت القلعة ونادى واليها ففتحها، وأصعد نور الدين إليها، وقرّر أمره، ومشى أحواله.

ثم إن نور الدين خرج غازياً ففتح حصوناً كثيرة.

قال ابن عساكر: فتح نيفاً وخمسين حصناً، وكسر برنس انطاكية، وقتله وقتل معه ثلاثة آلاف نفس، وأخذ من القومص ^(٤) ثلاثمائة ألف دينار، وخمسمائة زردية، وخمسمائة حصان، وخمسمائة أسير.

قال ابن الجوزي: استرجع من أيدي الكفار نيفاً وخمسين مدينة وكان

قد عزم على فتح القدس فوافته المنية، وخطب له بالحرمين الشريفين مكة والمدينة، وبلاد الشام ومصر، وأظهر السنة بمدينة حلب، وأزال البدعة التي للروافض في الأذان: حي على خير العمل، وقمع بها الروافض، وبنى بها المدارس والمساجد، وأصلح طرقها، ووسع أسواقها، وأسقط جميع المكوس، وعاقب على الخمر.

وكان في الحرب ثابت القدم، حسن الرمي، صلب الضرب، يتقدم أصحابه في الحرب، يتعرض للشهادة، ويسأل الله تعالى أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطيور.

ووقف أوقافاً على المرضى والمجانين، وبنى المكاتب لليتامى، وبنى المارستان بدمشق، ووقف على سكان الحرمين الشريفين، وأقطع أمراء العرب الأقطيع لئلا يتعرضوا للحجاج، وأمر بإكمال سور المدينة، وأجرى إليها العين التي بأحد عند قبر حمزة رضي الله عنه، وبنى الربط والجسور والخانقات والقناطير، وجدد كثيراً من قني السيل في دمشق وغيرها من البلاد التي ملكها، ووقف كتباً كثيرة في مدارسها، وله أوقاف دايرة على جميع أبواب الخير.

وكان الجامع الأموي قد دثر، فولى نظره لقاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري، فأصلح أموره، وفتح المشاهد الأربعة، وكان حاصل الجامع بها من حين احترق سنة إحدى وسبعين وأربعمائة. وأضاف إلى أوقاف الجامع المعلومة، الأوقاف التي لاتعرف شروط واقفيها، سماها مال المصالح، ورتب عليها لذوي الحاجات والفقراء والمساكين والأرامل والايتم وما أشبه ذلك.

وفتح بدمشق باب الفرج ولم يكن قبله هناك باب بالكلية، وأغلق باب كيسان.

وكان رحمه الله حسنَ الخطِّ، كثيرَ المطالعة للكتب الدينية، متبعا للآثار النبوية، مواظبا على الصلوات في الجماعات، عاكفاً على تلاوة القرآن، حريصاً على فعل الخير، عفيفَ البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق، متحرّياً في المطعم والمشرب والملبس، لم يسمع منه رحمه الله تعالى كلمة فحش قط لافي رضاه ولا في غضبه. وأشهى ما يكون إليه كلمة حق يسمعها، أو إرشاد إلى سنة يتبعها، ولو لم يكن من حسن خصاله إلا ما علم منه وشاع أنه إذا وعد وفى، وإذا أوعد عفا، وإذا تحدّث بشيء يقف عليه، ولا يخاف قوله، ولا يجري في مجلسه الفسقُ والفجور والشتم والغيبة والقدح في الناس والكلام في أعراضهم كما يجري في مجالس الملوك، ولا يطمع في أخذ أموال المسلمين.

قال أبو الحسن ابن الأثير: قد طالعتُ تواريخَ الملوك المتقدمين قبل الاسلام ومنه إلى يومنا هذا فلم أرَ فيه بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسنَ سيرةً من الملك العادل نور الدين، ولا أكثرَ تحرّياً للعدل والانصاف منه، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهادٍ يتجهّزُ له، ومظلّمة يزيلها، وعبادة يقوم بها، وإحسان يوليه، وإنعام يُسديه، فلو كان في أمة لافتخرت به، فكيف بييت واحدا!

الباب الثاني

في ذكر عدله الدال على رصانة عقله ووفور كرمه وفضله

قال ابن الأثير: وفي الحقيقة هو الذي جدد للملوك سنة العدل والانصاف، وترك المحرمات من المأكّل والملبس والمشرب وغير ذلك، فإنهم كانوا قبله كالجاهلية همّ أحدهم بطنه وفرجه، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه، والزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه. «ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة».

كان رحمه الله تعالى أحسن الملوك سيرةً وأعدلهم حكماً، فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولا عسراً بل أطلقها جميعها في بلاد الشام والجزيرة وأعمالها وديار مصر وغيرها مما حكم عليه. وكان يتحرى العدل وينصف المظلوم كائناً من كان: الضعيف والقويّ عنده في الحق سواء. وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولّى كشف حاله بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير، فلا جرم سار ذكره في شرق الأرض وغربها.

ومن عدله: كان يعظّم الشريعة المطهّرة، ويقف عند أحكامها، ويقول: نحن شحن لها نمضي أوامرها. فمن اتباعه [أحكامها] أنه كان [يوماً] يلعب بالأكرة فرأى انساناً يحدث آخر ويومئ بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله، فقال: لي مع الملك العادل حكومة، وهذا غلام القضاة ليحضر معي إلى مجلس الشرع يحاكمني على الملبك الفلاني، فعاد إليه ولم يتجاسر يعرفه ما قال ذلك الرجل، ثم لما ألح عليه في السؤال ذكر له قوله، فألقى الجوكان من يده، وخرج من الميدان،

وسار إلى القاضي، وهو حينئذ كمال الدين الشهرزوي وأرسل إلى القاضي يقول له: إني قد جئت محاكماً، فاسلك معي ماتسلكه مع غيري. فلما حضر ساوى بينه وبين خصمه، وتحاكما فلم يثبت عليه حق، وثبت الملك لنور الدين، فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولن حضر: هل ثبت له عندي حق؟ قالوا: لا. فقال: اشهدوا عليّ إني قد وهبتُ له هذا الملك الذي حاكمني عليه، وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي، وإنما حضرت معه لئلا يظن أني ظلمته. فحيث ظهر أن الحق لي، وهبته له. وهذا غاية العدل بل غاية الفضل، وهي درجة فوق درجة العدل. فرحم الله تلك النفس الزكية الطاهرة المنقادة إلى الحق الواقفة معه.

قال ابن الأثير: وهذا مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الأزمنة وتفرق الكلمة، وإلا فقد انقاد إلى مجلس الحكم جماعة من الصحابة مثل: عمر، وعلي، ومعاوية، رضي الله عنهم.

قال: ومن عدله أنه لم يعاقب على المظنة والتهمة، بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت عليه بيّنة شرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعدّ. فدفع الله تعالى بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظنة. وأمنت بلادُه مع سعتها، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشريعة المطهرة.

قال: وحكى لي من أثق به أنه دخل يوماً إلى خزانة المال، فرأى مالاً كثيراً، فقال: من أين هذا؟ قالوا: بعث به القاضي كمال الدين من فائض الأوقاف، فقال: إن هذا المال ليس لنا. ولالبيت المال في هذه الجهة شيء، وأمر برده وإعادته على القاضي كمال الدين ليرده على صاحبه. فأرسله مُتولي الخزانة إلى القاضي فردّه أيضاً إلى الخزانة، وقال: إذا سأل السلطانُ عنه فقولوا له: غيره. فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فوجده. فأنكر على الخازن، وقال: ألم أقل لك إن هذا المال يُعاد على

أصحابه؟ فذكر له القاضي، فردّه إليه، وقال لرسوله: قلّ لكهال الدين: أنت تقدر على حمل هذا، وأما أنا فربّتي رقيقة لأطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله عز وجل.

قال: ومن عدله أيضاً، بعد موته، وهو أعجب ما يحكى، أن إنساناً كان بدمشق غريباً استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين، فلما توفي تعدّى بعض الأجناد على هذا الرجل، فشكاه، فلم يُنصف منه، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي، وقد شق ثوبه ويقول: يا نور الدين! لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا. أين عدلك؟ وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى، وكل منهم يبكي ويصيح. فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له: احفظ البلد والرعيّة وإلا خرج عن يدك. فأرسل إلى ذلك الرجل وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه فطّيب قلبه، ووهبه شيئاً وأنصفه، فبكى أشدّ من الأول، فقال له صلاح الدين: لم تبكي؟ فقال: أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته! فقال له صلاح الدين: هذا هو الحق، وكلما ترى فينا من عدله ومنه تعلمناه.

قال: ونور الدين أول من بنى دار العدل بدمشق، وسماها دار الكشف. وسببه أن الأمراء لما قدموا مدينة دمشق فبنوا الأملاك واستطالوا على الناس، وخصوصاً أسد الدين شيركوه، وكثرت الشكاوى إلى القاضي فلم يُقدم على الإنصاف من أسد الدين، فشكاه إلى نور الدين، فأمر ببناء دار العدل، فلما سمع أسد الدين بذلك، أحضر أصحابه وديوانه وقال لهم: اعلموا أن نور الدين ما بنى هذه الدار إلا بسببي وحدي، وإلا فمن هو الذي يمتنع على القاضي كهال الدين؟ والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب واحد منكم لأصلبته، فامضوا إلى كل من كان بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوه وأرضوه بأي طريق أمكن، ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي، فقالوا له: إن الناس إذا علموا هذا

اشتطوا في الطلب، فقال: خروج أملاكي عن يدي أسهل عليّ من أن يراني نورُ الدين بعين أني ظالم، فجلس نور الدين في دار العدل لفصل الخصومات والحكومات. وكان يجلس في الاسبوع اليومين والأربعة والخمسة وعنده القاضي والفقهاء، ويأمر بإزالة الحجاب والبواب، ويوصل إليه الشيخ الضعيف والعجوز الكبيرة، ويسأل الفقهاء عن ما أشكل عليه من الأمور الغامضة، فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة المطهرة. وبقي على ذلك مدة، فلم يحضر عنده أحد يشكو من شريكوه. فعرفه القاضي الحال، فسجد لله شكراً وقال: الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم إلينا. قال: فانظر إلى هذه المعدلة ما أحسنها، وإلى هذه المهابة ما أعظمها، وإلى هذه السياسة ما أشدها، هذا مع أنه كان لا يريق دماً، ولا يبلغ في عقوبة، وإنما كان يفعل هذا صدقة في عدله وحسن نيته.

وحضر إليه يوماً جماعة من التجار وشكوا إليه ان القراطيس كان ستون منها بدينار فصار سبعة وستون بدينار، وتزيد وتنقص ويخسرون. فسأل نورُ الدين عن كيفية الحال، فذكروا له أن عقد المعاملة على اسم الدينار في الوسط، وإنما يعدّون القراطيس بالسعر تارة ستين بدينار، وتارة سبعة وستين بدينار. فأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب الدينار باسمه، وتكون المعاملة بالدنانير الملكية، وتبطل القراطيس بالكلية، فسكت ساعة، وقال: إذا ضربتُ الدينار وابطلتُ المعاملة بالقراطيس فكأنني خربتُ بيوت الرعية، فإن كل واحد من السوق عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس، ايش يعمل بها! فيكون سبباً لخراب بيته. فأبى شفقة تكون أعظم من هذا على الرعية رحمه الله تعالى!

وحكي أنه كان قبل بناء دار العدل يجلس يوم الثلاثاء بالمسجد المعلق

الذي بالكشك ليصل إليه كل أحد من المسلمين وأهل الذمة حتى نساؤهم.

وحكى شاذبخت الطواشي الخادم النوري، قال: كنت يوماً أنا وسنقر خجاء واقفين على رأس نور الدين وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكراً عظيماً، وجعل ينفث بأصبعه في الأرض، فعجبنا من فكره وقلنا: في أي شيء يفكر: في عائلته أو وفاء دينه؟ وكأنه فطن بنا، فرفع رأسه، وقال: ماتقولان؟ فقلنا: ماقلنا شيئاً، فقال: بحياتي قولاً لي، فقلنا: عجبنا من افراط مولانا في الفكر، وقلنا: يفكر في عائلته أو في وفاء دينه، فقال: والله إنني أفكر في والٍ وليته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك، فبالله عليكم والافخزي حرام عليكم، لاتريان قصة ترفع إلي أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها، وارفعها إلي.

وحكى أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم قال: كان نور الدين لما صارت له الموصل قد أمر كمشتكين شحنة الموصل أن لايعمل شيئاً إلا بالشرع إذا أمره القاضي، وأن لايعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا بعد مراجعة الشيخ عمر الملاء، قال: فكان لايعمل بالسياسة وبطلت الشحنة. فجاء أكابر الدولة وقالوا لكمشتكين: قد كثر الدعار وأرباب الفساد، ولاينجي من هذا شيء إلا بالقتل والصلب، فلو كتبت إلى نور الدين في ذلك، فقال: أنا لاأكتب إليه في هذا المعنى ولاأجسر على ذلك، ولكن قولوا للشيخ عمر يكتب إليه، فحضروا عنده، وذكروا له ذلك، فكتب إلى نور الدين، وقال له: إن الدعار والمفسدين وقطاع الطريق كثروا ويحتاج إلى نوع سياسة، ومثل هذا لايجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال إنسان في البرية من يجيء ليشهد له؟ قال: فقلب نور الدين كتابه وكتب على ظهره: إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه

الكمال، ولو علم أنّ على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه لنا، فإلنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى، فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة فهو يكملها بزيادته، وهذا من الجرأة على الله وعلى شرّعه، والعقول المظلمة لا تهتدي، فالله سبحانه يهديننا وإياك إلى الكتاب وإلى صراط مستقيم. قال: فجمع الشيخ عمر أهل الموصل وأقرأهم الكتاب وقال: انظروا كتاب الزاهد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد.

وحكي أنه دخل في أيام نور الدين إلى حلب تاجرٌ موسر فمات بها، وخلف ولداً صغيراً ومالاً كثيراً، فكتب من بحلب إلى نور الدين يذكر له أنه قد مات ها هنا رجل تاجر موسر خلف عشرين ألف دينار أو فوقها، وله ولدٌ صغير عمره عشر سنين، وحسن له أن يرفع المال إلى الخزانة فإذا كبر الفتى يرضى منه بشيء ويمسك الباقي للخزانة، فكتب نور الدين على الرقعة: أما الميِّتُ فرحمه الله تعالى، وأما الولدُ فأنشأه الله، وأما المال فثمره الله، وأما الساعي فلعنه الله. وهذه الحكاية تحكى عن غير نور الدين، فلعله مما تطابق فيه الخافر [على الخافر].

الباب الثالث

في ذكر شجاعته وشهامته ونجدته وصرامته وقوة عزمه

وحسن رأيه وحزمه

فقد كانت النهاية إليه في ذلك، وكان أصبرّ الناس في الحرب، وأحسنهم مكيدة ورأياً، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم. وبه كان يضرب المثل السائر في ذلك.

يقال انه لم يُرَ في زمانه على الفرس أحسن منه، كأنه خلق عليها لا يتحرك ولا يتزلزل، وكان من أحسن الناس لعباً بالأكرة وأقدرهم عليها، وربما ضرب الكرة ويجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان، ولم يرَ جوكانه يعلو رأسه، وكانت يده لا تُرى والجوكان فيها، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب.

وكان إذا حضر الحرب أخذ قوسين وشدّ تركاشين^(٥) وكان يباشر الحرب بنفسه، وكان يقول: قد تعرضتُ للشهادة غير مرة فلم أدركها ولو كان فيّ خيرٌ ولي عند الله قيمةٌ لرزقتها، والأعمال بالنيات.

وقال له يوماً القطب النيسابوري الفقيه الشافعي: يامولانا السلطان، لا تُخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين فانك عمادهم، فلو أصبت في معركة، والعيادُ بالله، لا يبقى من المسلمين أحدٌ إلا أخذه السيفُ وتؤخذ البلاد، فقال: يا قطب الدين، اسكت، فإن قولك هذا إساءةٌ أدب على الله، ومن محمود حتى يقال له هذا؟ قبلي من حفظ البلاد، ذلك الله الذي لا إله إلا هو، فبكى من كان حاضراً.

قال ابن الأثير: ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع جنده، فإنه كان

إذا توفي أحدُهم وخلف ولداً أقرَّ إقطاعه عليه، فإن كان الولد كبيراً استبد بنفسه، وإن كان صغيراً رتب معه من يتولى أمره إلى أن يكبر، فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عليها. وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب المقتضية للصبر في المشاهد والحروب.

وما كان يكُلُّ الجند إلى الأمراء، بل يتولاهم بنفسه ويباشر خيولهم وسلاحهم مخافة أن يقصر الأمراء في حقهم، ويقول: نحن كل وقت في النفير، فإذا لم يكن أجنادنا كاملي العدة دخل الوهن على الإسلام.

وأما هيئته ووقاره فأليه النهاية. وكان، كما قيل، شديداً من غير عنف، رقيقاً من غير ضعف، واجتمع له ما لم يجتمع لغيره، فإنه ضبط ناموس الملك مع أجناده وأصحابه إلى غاية لا مزيد عليها، وكان يلزمهم بوظائف الخدمة، الصغير منهم والكبير. ولم يجلس عنده أمير من غير أمره له بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف، وأما ما عداه كأسد الدين شيركوه ومجد الدين ابن الداية وغيرهما فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقومون إلى أن يأمرهم بالقعود. وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي، يقوم له، ويمشي بين يديه، ويجلسه إلى جانبه كأنه أقرب الناس إليه، وكان إذا أعطى أحدهم شيئاً يقول: هؤلاء لهم في بيت المال حق، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة (علينا).

وكان مجلسه: كما روي في صفة مجلس رسول الله ﷺ: « مجلس حلم وحياء لا تؤبن فيه الحرم ». هكذا كان مجلسه لا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشاورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو، ولا يتعدى هذا.

وحكي: أن الحافظ ابن عساكر رحمه الله حضر مجلس الملك الناصر

صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق، فرأى فيه من اللغظ وسوء الأدب من الجالسين ما لم يحدث في غيره ، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين، فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المحدثين وقلة استماعهم ، فقام، وبقي مدة لا يحضر المجلس الصلاحي؛ وتكرر من صلاح الدين الطلب له فحضر ، فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه، فقال : نزهت نفسي عن مجلسك ، فأني رأيتك كبعض مجالس السوق لا يستمع إلى قول قائل، ولا يرد جواب متكلم. وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين، فكنا كما قيل كأنما على رؤوسنا الطير، تعلقونا الهيبة والوقار، فإذا تكلم أنصتنا، وإذا تكلمنا أنصت لنا . فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه أن لا يكون منهم ما جرت به عادتهم إذا حضر الحافظ.

قال ابن الأثير هكذا كانت أحواله رحمه الله جميعها مضبوطة محفوظة .

وكان معنياً بحفظ أصول الديانات، ولا يمكن أحداً من إظهار ما يخالف الحق، ومتى أقدم مقدم على ذلك، أدبه بما يناسب بدعته، وكان يبالي في ذلك ويقول : نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق والأذى الحاصل منها قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه.

قال: وحكي أن إنساناً بدمشق يعرف بيوسف بن آدم كان يظهر الزهد والنسك، وقد كثر اتباعه وأظهر شيئاً من التشبيه، فبلغ خبره نور الدين، فأركبه حماراً وأمر بصفعه، وطيف به في البلد جميعه، ونودي عليه: هذا جزاء من أظهر في الدين البدع ثم نفاه من دمشق، فقصد حران.

قال: ويسوق الله القصيري الأعمار إلى البلاد الوخمة .

الباب الرابع

فيما فعله في بلاد الإسلام من المصالح والمساعي الكفيلة
بالمناجح

وما أدخل على المسلمين من المسارِّ وعمَّهم به من المبار

وذلك عظيم كثير. من ذلك أنه بنى أسوارَ مدن الشام جميعها وقلاعها، منها: دمشق، وحمص، وحمّاة، وحلب، وبازين، وشيزر، ومنبج، وغيرها من القلاع والحصون، وحصّنها وأحكم بناءها، وأنفق عليها من الأموال مالا تسمح به النفوس، وبنى أيضاً المدارسَ بدمشق وحمص وحمّاة وحلب وغيرها للشافعية والحنفية، حتى ان بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله، وفي زمنه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية، وبنى الجوامع في غالب البلاد، فجامعة في الموصل إليه النهاية في الحسن والاتقان، وكان قد فوّض أمرَ عمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر الملاء رحمه الله، وكان من الصالحين، فقبل له: انه لا يصلح لمثل هذا العمل، فقال: إذا وليت العمل بعض الأجناد أو بعض العمال أعلم أنه يظلم في بعض الأوقات، ولا يفي الجامع بظلم رجل مسلم، وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لا يظلم أحداً، فإذا ظلم كان الإثم عليه لاعليّ.

وإنما سميَ هذا الشيخُ بالملاء لأنه كان يملأُ تنانير الأجر، ويأخذ الأجرةَ يتقوّتُ بها، وكان ماعليه من الثياب مثل القميص والعمامة يملكه لغيره، فلا يملك من الدنيا شيئاً، وكان عالماً بفنون العلوم، وجميع الملوك والأعيان والعلماء يزورونه ويتبركون به، وكان يعمل مولداً لرسول الله ﷺ في كل سنة ويحضر دعوته صاحبُ الموصل والأكابر، وكان نورُ الدين يجبه ويكاتبه.

وكان مكان الجامع النوريّ خربةً واسعةً ماشرعاً أحدّ في عمارتها إلا وقصر عمره، فأشار الشيخُ عمر على نور الدين بعمارتها جامعاً، فاشتراها وأنفق عليها أموالاً كثيرةً يقال ستين ألف دينار، ويقال ثلاثمائة ألف دينار، فتم في ثلاث سنين، ولما توجه نور الدين إلى الموصل، وهي المرة الأخيرة، فصلّى فيه، ووقف عليه قريةً بالموصل، ورتب فيه خطيباً ومؤذنين، وعمل له البسط والحصر وغيرها، ثم دخل الشيخُ عمر على نور الدين وهو جالس على دجلة فترك بين يديه دساتيرَ الخرج على الجامع، وقال: يامولانا، أشتهي أن تنظر فيها، فقال: ياشيخ نحن عملنا هذا لله تعالى، دع الحساب إلى يوم الحساب، ثم رمى بالدساتير في دجلة.

وبنى جامع حماة على نهر العاصي، وهو من احسن الجوامع وأزهرها .

وبنى البيهارستانات في البلاد، ومن أعظمها البيهارستان الذي بناه بدمشق، فانه عظيم كثير الخرج.

وحكي أنه وقع بيد نور الدين افرنجي من أكابر الملوك، ففدى نفسه بهال عظيم، فشاور نور الدين أمراءه، فأشاروا ببقائه في الأسر خوفاً من شره، فأرسل إليه نور الدين في السر يقول: أحضر المال، فأحضر ثلاثمائة ألف دينار، فأطلقه نور الدين. فعند وصوله إلى مأمنه مات، وبلغ نور الدين خبره فأعلم أصحابه، فتعجبوا من لطف الله بالمسلمين حيث جمع لهم الحُسنيين: الفداء وموت ذلك اللعين.

وبنى نور الدين البيهارستان بدمشق، وبنى أيضاً مدرسته ودارَ الحديث بدمشق، ووقف عليها الأوقاف. قاله ابن الأثير .

قال الشيخ عماد الدين بن كثير: ومن شرط البيهارستان أنه على الفقراء والمساكين، وإذا لم توجد بعض الأدوية التي يعز وجودها إلا فيه فلا

يُمنع منه الأغنياء، ومن جاء إليه فلا يمنع من شرابه ولهذا جاء نور الدين وشرب من شرابه رحمه الله تعالى، قال: ويقول بعض الناس إنه لم تُحمد منه النار منذ بني إلى زماننا (٦) هذا.

قلت: ويقال إنها مستمرة لم تُحمد إلا في فتنة تمرلنك، عامله الله بها يستحق.

حكى الشيخ الجزري في تذييله على المرأة أن نور الدين لما حضر إلى البيمارستان أحضر له قدح شراب فشربه، وقال: هذا حلال على جميع المسلمين وعلى مثلي وعلى أقل العالم، وحرام على اليهود والنصارى، وعلى غلام وجارية تحت الرق، فلا يدخله إلا من هو معتوق.

قال: وبنى أيضاً الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنجة، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الحمام الهوادي، فإذا رأوا أحداً أرسلوا الطيور، فأخذ الناس خبرهم وتجهزوا لهم، فلم يبلغ العدو منهم غرضاً، وكان هذا الطفِ الفكر وأكثره نفعاً.

قال: وبنى الربط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية، ووقف عليهم الوقوف الكثيرة، وأدّر عليهم الإدارات الصالحة، وكان يُحضر مشايخهم عنده ويقربهم ويدنيهم ويباسطهم ويتواضع لهم، وإذا أقبل عليه أحدُهم يقوم له مذ تقع عينه عليه، ويعتقه ويجلسه معه على سجادته، ويقبل عليه بحدِيثه، وكان كذلك يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام، ويجمعهم عند البحث والنظر، وكانوا يقصدونه من البلاد الشاسعة من خراسان وغيرها، وكان إذا نقل عن انسان منهم عيب يقول: ومن المعصوم؟ إنما الكامل من تعدّ ذنوبه.

قال ابن الأثير: إن بعض الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعيّ لقربه من نور الدين، فقال له: يامسكين، لو نظرت في عيب

نفسك لشغلك عن عُيوب غيرك، ولو صحَّ ماتقول فله حسنة تغفرُ له زلة تذكرها وهي العلم والدين، وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، والله لئن عدت إلى ذكره أو ذكر غيره بسوء لأؤدبناك، فكف عنه.

قال ابن الأثير: هذا هو الاحسان والفعل الذي ينبغي أن يكتب على العيون بقاء الذهب.

قال: وبنى داراً للحديث بدمشق، وهو أول من بنى دار الحديث فيما علمنا، وبنى مكاتب الأيتام في كثير من البلاد، وأجرى عليهم وعلى معلمهم الخيرات الوافرة، وبنى أيضاً المساجد الكثيرة ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن، قال: وهذا فعل لم يسبق إليه، قال: وبلغني ممن هو عارف بأعمال الشام أن وقوف نور الدين في وقتنا هذا وهو سنة ثمان وستمائة في أبواب البر بالشام كل شهر تسعة آلاف دينار صورية، ليس فيها ملك فيه كلام، بل حق ثابت بالشرع باطناً وظاهراً.

وذكر العماد الكاتب في أول كتابه البرق الشامي نور الدين وأثنى عليه وقال: في سنة تسع وستين وخمسمائة التي توفي فيها نور الدين أكثر فيها من الأوقاف والصدقات وعمارة المساجد المهجورة، وأمر بتعفية آثار الآثام وإسقاط كل ما فيه من الحرام، فما أبقى سوى الجزية والخراج وما يحصل من قسمة الغلات على قويم المنهاج.

قال: وأمرني بكتابة مناشير لجميع البلاد، فكتبت أكثر من ألف منشور، وحسبنا ماتصدق به على الفقراء في تلك الأشهر فزاد على ثلاثين ألف دينار، وكانت عادته في الصدقة ان يُحضر جماعة من أمثال البلد من كل محلة ويسألهم عن يعرفونه في جوارهم من أهل الحاجة، ثم يصرف اليهم على قدر حاجاتهم، قال: ولو اشتغلت بذكر وقوفه وصدقاته في

كلُّ بلد لطلال الكتاب ولم يبلغ إلى أمد، ومشاهدة أبنيته دالةً على خُلوص نيته، تغني عن خبرها بالعيان، وتكفي أسوارُ البلدان والربط والمدارس على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب، وفي شرح طوله طول، وعمله لله ذلك مبرور مقبول.

قال: ولما أسقط نور الدين الجهات المحظورة والشبه المحذورة، عزل الشحن، وصرف عن الرعية بصرفهم المحن، وقال للقاضي كمال الدين الشهرزوري: انظر أنت في ذلك، واحمل أمور الناس فيها على الشريعة، قال: ولم يكن لبيت المواريث حاصل ولا لديوانه حامل، فجعل نور الدين ثلث ما يحصل منه لكمال الدين الحاكم فوفره نوابه وكثروه، وما كان نور الدين يحاسب القاضي على شيء من الوقوف، ويقول: أنا قد قلدته على أن يتصرف بالمعروف (٧) .

وحكى الشيخ أبو البركات الحسن بن محمد بن هبة الله أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم رحمه الله مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث، فمر في أثناء الحديث أن النبي ﷺ خرج متقلداً سيفاً، فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه، وقال: كان رسول الله ﷺ يتقلد السيف، يشير إلى التعجب من عادة الجند إذ هم على خلاف ذلك لأنهم يربطونه بأوساطهم، قال: فلما كان من الغد مرّ وأنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه، فخرج نور الدين رحمه الله تعالى من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك، فرحم الله هذا الملك الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي ﷺ بمثل هذه الحالة، بل لما بلغته رجوع نفسه وردّ جنده عن عوائدهم اتباعاً لما بلغه عن نبيه ﷺ، فما الظن بغير ذلك من السنن!

وكان رحمه الله فرداً في زمانه من بين سائر الملوك، ولو لم يكن إلا استماعه للموعظة وانقيادها وان اشتملت على ألفاظ قد أغلظ فيها.

وحكى شرف الدين بن المستوفي في تاريخ إربل ان المنتجب الواعظ
أبا عثمان ابن أبي محمد البحري عمل في نور الدين قصيدة وأنشده إياها
من لفظه وهي قوله:

مثل وقوفك أيها المغرور
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاءِ تَمُورُ
ان قيل نور الدين رحمت مسلماً
فاحذربأن تدعى ومالك نور
أنهيت عن شرب الخمر وأنت من
كأس المظالم طافح مخمور
عطلت كاسات المدام تعففاً
وعليك كاسات المكوس تدور
ماذا تقول إذا نقلت إلى البلى
فردا، وجاءك منكرو ونكير
ماذا تقول إذا وقفت بموقف
فرد أذليلاً والحساب عسير
وتعلقت فيك الخصوم وأنت في
يَوْمَ الْحِسَابِ مَسْحَبٌ مَجْرور
وتفرقت عنك الجنود وأنت في
ضيق اللحود موشد مقبور
ووددت أنك ما وليت ولايةً
يَوْمَئِذٍ، ولاقال الأنعام أمير
وبقيت بعد العزّ رهناً حفيرة
في عالم الموتى وأنت حقير
وحشرت عريانا حزينا باكياً
قلقاً، ومالك في الأنعام مجير
أرضيت أن تحيا وقلبك دارس
عافي الخراب وجسمك المعمور
أرضيت أن يحظى سواك بقربه
أبداً وأنت مبعدم هجور

تدعى بنور الدين فاحذر في غد
تدعى ظلام الدين مالك نور^(٨)

قال صاحب الروضتين: ولعل هذه الأبيات كانت من أقوى الأسباب المحركة لإبطال تلك المظالم والخلاص من تلك المآثم، رضي الله عن الواعظ والمتعظ بسببه، ووفق من رام الإقتداء به.

وكان هذا الواعظ من كبار الصالحين ليس له شيء ولا يقبل من أحد شيئاً، إنما كانت له جبة يلبسها إذا خرج إلى مجلس وعظه، وكان في مجلس وعظه ألوف من الناس.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم: حكى لي السلطان الملك الناصر صلاح الدين، قال: أرسلني الملك العادل نور الدين إلى عمي أسد الدين شيركوه، وكان لا يفعل شيئاً إلا بمشورته، وقال: امض إليه، وقل له: قد خطر في بالي أن أبطل هذه الضمانات بأسرها والمؤن والمكوس، وخذ رأيه في ذلك، قال: فجئت إلى عمي، وأنهيتُ إليه ما قال لي، فقال: امض وقل له: يا مولانا، إذا فعلت ذلك فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من أين تعطيتهم، وتحتاج إليهم غداً للجهاد وخروج العساكر للغزاة، فقال صلاح الدين: فقلت لعمي: هذا أمر قد ألهمه الله إياه فساعد عليه، فصاح في وقال: امض إليه وقل له ما قلتُ لك، قال: فعدتُ إلى نور الدين وأنهيتُ إليه ما قال لي عمي، فقال: امض إليه وقل له: إذا كنا نغزو من هذه الجهات نتركها ونقعد ولا نخرج، قال: فعدتُ إلى عمي وقلت له ما قال، فقال: قل له: إن تركوك تقعد فجيء هو، فراجعته في ذلك ان لا يثبطه في ذلك فصاح في وقال: امض وقل له ما قلتُ لك، فجئتُ إليه وقلت له ذلك، فترك ذلك مدة ثم أمضى ما كان عزم عليه.

وحكي عن بعض ممالك نور الدين أنه كان يرفع يديه إلى السماء ويكي ويتضرع ويقول: ارحم العشار المكاس.

قال صقر بن يحيى: بلغني ان موفق الدين خالداً رأى في النوم نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها، فقصّها على نور الدين فتمعّر وجهه، فخرج موفق الدين، وبقي أياماً على غاية من الخجل، فاستدعاه نور الدين يوماً وقال: قد آن لك أن تغسل ثيابي، اقعّد واكتب باطلاق المؤن والمكوس والأعشار واكتب للمسلمين إني قد رفعت عنهم ما رفعه الله تعالى عنكم، واثبت ما أثبته الله عليكم. فكتب موفق الدين توقيعاً بذلك.

وحدث رضي الدين أبو سالم عبد المنعم بن المنذر أن نور الدين حين خرج لأجل شيزر خرج أبو غانم بن المنذر صحبته، فأمره نور الدين رحمه الله بكتابة منشور باطلاق المظالم: بحلب، وحمص، وسنجار، وحران، والرحبة، وعزاز، وتل باشر، وعداد العرب^(٩) فكتب عنه توقيعاً نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ماتقرب به إلى الله سبحانه صافحاً واطلقه مساحاً لمن علم ضعفه من الرعايا، رعاهم الله، لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدي الكفار، أبادهم الله تعالى، عند استيلائهم على البلاد، وظهور كلمتهم على العباد، رفقا بالمسلمين المثاغر، ولطفاً بالضعفاء والمرابطين الذين خصهم الله تعالى بفضيلة الجهاد، واستمنحهم بمجاورة أهل العناد، اختباراً لصبرهم وإعظاماً لأجرهم، فصبروا احتساباً، وأجزل الله لهم أجراً وثواباً: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)^(١٠)، وأعاد عليهم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح العمرية، وأقرها في الدولة الإسلامية، بعد ما طرأ عليها من الظلمة المتقدمين، واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاحين، فطمس عنهم بذلك معالم الجور، وهدم أركان التعدي، وأقر الحق مقرة لقوله تعالى: (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)^(١١) (والله يضاعف لمن

يشاء) (١٢) ثم أعانه الله بعونه، وأيده بنصره، وقمع به عادية الكفر، واطهر بهيمته الإسلام، وأظهره على الفئة الباغية، وأمكنه من ملوكها الطاغية، فجعلهم بين قتيل غير مقاد، وهارب ممنوع الرقناد (وأخرين مقرنين في الاصفاد) * هذا عطاؤنا فامتنن أو امسك بغير حساب * وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) (١٣) علم أن الدنيا فانية فاستخدمها للآخرة الباقية، واستبقى ملكه الزائل بأن قدّمه وجعله ذخراً للمعاد، فالتقوى مادة زاده اذا انقطعت المواد (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) (١٤) ، فسمح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس، فأسقطها من دواوينه، وحرّمها على كلّ متطاول إليها، ومتهافت عليها، تجنباً لائمها، واكتساباً لثوابها، فكان مبلغ ما سماح به واطلقه وأنفذ الأمر فيه اتباعاً لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ في كل سنة من العين مائة ألف وستة وخمسون ألف دينار، جهة ذلك: حلب المحروسة خمسون ألف دينار، عزاز عن مكس جددته الفرنج خذلهم الله على المسافرين عشرة آلاف دينار، تل باشر واحد وعشرين ألف دينار، المعرة ثلاثة آلاف دينار، دمشق المحروسة لما استنجد به أهلها واستصرخ به من فيها خوفاً على أنفسهم وأموالهم من استيلاء العدو، وضعفهم عن مقاومته، ما كان يؤخذ منهم في كل سنة، وهو رسم يسمونه الفيئة، عشرون ألف دينار، حمص ستة وعشرون ألف دينار، حران خمسة آلاف دينار، سنجار ألف دينار، الرحبة عشرة آلاف دينار، عدا د العرب عشرة آلاف دينار، طلباً لما عند الله، (والله عنده حُسْنُ الثواب) (١٥) ، فالواجب على كل إمام عادل وسلطان قادر أن يمدّه ويودّه، ويشدّ عضده، ويقوّي عزمه، وينفذ حكمه. وعلى كل مسلم أن يواصله بالدعاء أثناء الليل وأطراف النهار. وكتب إلى كل من يصل إليه من أئمة الدين وفقهاء المسلمين وأصحاب الزوايا المتعبدين، وكافة التجار المسافرين، أحسن الله توفيقهم، ليُشعروا بذلك من حضرهم من التجار المترددين إليهم من السفار ليعرفوا قدر ما أنعم الله به عليه وعليهم (وليُنذروا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ) (١٦) ويُمَدّوه

بأدعيتهم، ويرثوا ذمته مما سبق من أخذ مؤنتهم، فإنه لم يصرف ذلك إلا في وجه برّ، وتجهيز جيش، ومعونة مجاهد، وردع كافر ومعاند، فهم شركاؤه في الثواب، فلما وقف نور الدين على قوله: ويرثوا ذمته مما سبق، استحسّن ذلك ووعدّه باقّطاع حسن.

وذكر قاضي القضاة بهاء الدين أن نور الدين سيّر كتاباً إلى بغداد يعلم الخليفة بما أطلقه وبمقدار ما أطلق، ويسأله ان يتقدم إلى الوعاظ بأن يستحلوا من التجار ومن جميع المسلمين له وإن يجعلوه في حلّ بما كان وصل إليه من أموالهم، فتقدم بذلك، وجعل الوعاظ ينادون على المنابر بذلك.

قال صاحب الروضتين: نقلت من خطّ الشيخ الأمين أبي القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن عبدان الأزديّ الدمشقي: وقف المولى نور الدين بستان الميدان، سوى الغيطة التي من قبلته، بعد عمارته وإصلاح ما يحتاج إليه على تطيب المساجد التي يأتي ذكرها: وهي جامع دمشق المحروسة، جامع القلعة بها، ومدرسة الحنفية التي جددها نور الدين، مسجد ابن عطية داخل باب الجابية، مسجد ابن لييد بالفُسقار، مسجد سوق الرماحين، المسجد المعلق بسوق الصاغة، مسجد دار البطيخ المعلق، مسجد العباس بسوق الأحد بالصالحية، المسجد الذي جدده نور الدين جوار بيعة اليهود، جامع الصالحين بجبل قاسيون: يُبتاع بذلك طيب وعود، ويفرق على هذه الأماكن: النصف للجامع بدمشق، والنصف الثاني ينقسم على أحد عشر جزءاً: جزءان للمدرسة، وتسعة أجزاء للمساجد الباقية لكل مسجد جزء واحد. تطيب هذه الأماكن في الأوقات الشريفة، ومواسم الاجتماعات، وليالي شهر رمضان، والأعياد، وأيام الجمع وقت عقد الجمعة في الجوامع، وليالي الجمعة والخميس والأثنين.

قال: ونقلت من خطّه أيضاً أن نور الدين حضر عنده بقلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى القرشي، والفقيه الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، والخطيب عز الدين أبو البركات بن عبد، والإمام عز الدين أبو القاسم علي بن الحسن الشافعيون وشرف الدين أبو القاسم عبد الوهاب بن عيسى المالكي، وشرف الاسلام نجم الدين بن عبد الوهاب الحنبلي، ورضي الدين أبو غالب بن عبد المنعم بن محمد بن أسد التميمي رئيس دمشق، ونظام الدين أبو الكرم المحسن بن أبي الضياء متولي الوزارة بدمشق، والأعيان من شهود العدالة بدمشق وهم: عبد الصمد بن تميم، وعبد الواحد بن هلال، والصائغ أبو الحسن وغيرهم. فسألهم نور الدين عن المضاف إلى أوقاف المسجد بدمشق من المصالح التي ليست وقفا عليه، وأن يُظهر كل واحد منهم ما يعلمه من ذلك ليعمل به ويقع الاعتماد عليه، وقال لهم: ليس يجوز لأحد منكم أن يعلم من ذلك شيئاً إلا ويذكره، ولا يُنكر شيئاً مما يقوله غيره إلا وينكره، والساكت منكم مصدق للناطق ومصوّب لقوله، وليس العمل إلا على ماتفقون عليه وتشهدون به، وعلى هذا كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين، وكل من الحاضرين شكره على ما قصده، وأثنى عليه، ودعا له بالبقاء. ثم أمر نور الدين رحمه الله تعالى متولي أوقاف الجامع والمساجد والبيمارستان وقنيّ السبيل وما يجري مع ذلك أن يقرأ عليه بمحضر من المذكورين ضريبة الأوقاف موضعاً موضعاً ليفرد ما يعلمون أنه للمصالح دون الوقف. فافتتح با لسوق المستجدّ تحت المئذنة الغربية جوار البيمارستان، فقال الصائغ وابن تميم وابن هلال: هذا السوق بكما له لمصالح المسلمين وليس من وقف الجامع لأنه أحدث في طريق المسلمين، كما شهدوا به، ومبلغ ذلك خمس وعشرون عضادة. ثم عين للمصالح أيضاً ما في زيادة الجامع القبليّة وزيادة باب البريد في الصف القبلي والشامي من العضائد والحوانيت

والحجر التي علوها، وجميع بيوت الخضراء من قبلة الجامع والفرن
المستجدّ بها، ودار الخيل والمساكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل،
وحانوت في الخواصين في الصف الغربي، واثنى عشر حانوتا متلاصقات
من الصف الشرقي تعرف بالمعتصمات، ونصف حانوت، والفرجة
المستجدة بحضرة دار الوكالة إلى سوق علي، وعدتها ثلاثة عشر حانوتا
ومصطبة، وثلاثة حوانيت في الصف الشامي من سوق علي لصق الفرجة
من شرقها، وحانوت بالفسقار في الصف القبلي يعرف بسكنى ثعلب
الفقاعي، وحوانيت اللبادين والتي بحضرة الفوارة تحت اللبادين
وقيسارية العقيقي بسوق الأحد وتعرف بدار الشجرة، وحانوتان في
الصف الشرقي بحضرة فندق الزيت من غرب درب التمارين، وحانوت
بقنطرة الشاعين في الصف الشامي بحضرة البيطرة، وقطعة جوار
المأمونية من غربها، والعضائد التي في الصف الشامي من سوق الأحد
وهي خمس عشرة عضادة، وستة أسهم من طاحون السقيفة، وذلك كله
بعضه ميراث عن بني أمية كالخضراء ودار الخيل، وبعضه اشترى بهال
الوقف والمصالح، وبعضه أخذ من باد أهله الموقوف عليهم ولم يكن له
مال، وبعضه أحدث في الطريق، قال: فلما شهدوا بصحة جميع ماذكر،
وأن منافع ذلك وأجوره جارية في المصالح، قال نور الدين: إن أهم
المصالح سد ثغور المسلمين، وبناء السور المحيط بدمشق والخندق
لصيانة المسلمين وحریمهم وأموالهم، وصوّبوا ماأشار إليه وشكروه، ثم
سألهم عن فواضل الأوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل
الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين، فأفتى شرف الدين المالكي
بجواز ذلك، ومنهم من توقف ليتروى، فقال الشيخ شرف الدين بن أبي
عصرون: لايجوز أن يُصرف وقفٌ مسجد إلى غيره، ولاوقفٌ معيّن إلى جهة
غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بدّ من ذلك، فليس طريقه إلا أن يقرضه
من إليه الأمر في بيت المال للمسلمين. فيصرفه في المصالح ويكون
القضاء واجبا من بيت المال فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك، ثم

سأل ابن أبي عصرون نور الدين: هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق، وعلى بناء الكلاسة من شام الجامع، وعلى إنشاء السقف المقرنص تحت النسر بالجامع، وعلى الرصاص المعمول على سطح الرواق الشامي من الجامع، وسائر العمائر المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا، وهل كان إلا بمبلغ الأمر العالي في عمل ذلك، فقال نور الدين: لم ينفق ذلك ولا شيء منه إلا بإذني، وأنا أمرتُ به وبفتح المشهدين غربي الجامع المعمور للذين كانا مخربين، وكنت مبلغاً عني ومؤذناً أمري.

هذا مختصر المحضر الذي كتب فيه صورة ماجرى في ذلك المجلس، وهو مشتمل على فوائد حسنة، وتأكيد لما نقل من سيرة هذا الملك في وقوفه مع أوامر الشريعة، وفي ذلك المحضر خطوط الجماعة الحاضرين.

وحكى صاحب الروضتين عن بعضهم أنه حضر صبيّ عند الملك العادل وبكى، وذكر ان أباه محبوس على أجرة حجرة من حجر الوقف، فسأل عن حاله، فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعيد الصوفي، وهو رجل زاهد قاعد في حجرة وليس له قدرة على الأجرة، وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة، قال الملك العادل نور الدين كم أجرة السنة؟ قالوا: مائة وخمسون قرطاساً. وذكروا سيرته وطريقته وفقره، فرق له وأنعم عليه، وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها، وأمر باخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كل أحد من الحاضرين الفرح حتى كأن الانعام كان في حقه.

الباب الخامس

في ذكر زهده وورعه وعبادته ودينه وعلمه

المكمل لسيادته، الشاهد بتأطيد دعائم سعادته

قال ابن الأثير: فان قال قائل كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجبى إليه الأموال الكثيرة، فليذكر نبي الله سليمان بن داود عليه السلام مع ملكه وهوسيد الزاهدين في زمانه، ونبي الله ﷺ قد حكم: حضرموت، واليمن والحجاز، وجميع جزيرة العرب من حدود الشام إلى أرض العراق، وهو على الحقيقة سيد الزاهدين، قال: وإنما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لاخلو اليد منها.

وكان نور الدين رحمه الله تعالى مع سعة ملكه وذخائر بلاده لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من ملك اشتراه من سهمه من الغنائم، وكان يحضر الفقهاء ويستفتيهم فيما يحل له من تناول الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، فيأخذ ما يفتونه بحله، ولم يتعدّه إلى غيره البتة.

ويقال إن نفقته كانت من الجزية في كل شهر ألفا قرطاس يصرفها في كسوته وملبوسه ومأكوله حتى أجرة خياطه، ويستفضل منها ما يتصدق به في آخر الشهر، ويقال إن قيمة القراطيس مائة وخمسون درهماً، وما كان يصل إليه من هدايا الملوك وغيرهم يبعه ويعمر به المساجد المهجورة، ويشترى لها أوقافاً ولا يتناول منها شيئاً، ولا يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة، ومنع من شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ومن إدخالها إلى بلد ما، وكان يحد شاربها الحد الشرعي، كل الناس عنده فيه سواء.

كان كثيرَ الصيام، وله أوراد في الليل والنهار. وكان يقدم أشغال المسلمين عليها، ثم يتم أوراده.

أخبرت عنه زوجته الخاتون بنتُ معين الدين أنه كان إذا جاء إليها يجلسُ في المكان المختص به فتقوم بخدمته، ولا تتقدم إليه إلا في أخذ ثيابه عنه، ثم تنزل في المكان المختص بها، وينفرد هو تارةً يطالعُ في وقائع أصحاب الأشغال، أو ينظر في كتاب أتاه ويحيب عنه، وكان يصليّ فيطيل الصلاة، وله رحمه الله تعالى أوراد في النهار، فإذا جاء الليل وصليّ العشاء، نام ثم استيقظ نصف الليل، فيتوضأ ويصلي إلى الفجر، ثم يصليّ الصبح، ويظهر للركوب ويشغلُ بمهمات الدولة.

وأرسلتُ إليه الخاتونُ يوماً أخاها من الرضاع تذكر له أنه لم يكفها ماكان قرّزه، وتطلب منه زيادة، فلما قال ذلك، تنكر واحمر وجهه، ثم قال: من أين أعطيها ما يكفيها؟! والله لأخوض في نار جهنم في هواها، إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن، إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم، وأنا خازنهم فلا أخونهم فيها. ثم قال لي: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين اشتريتها من الغنائم، وقد وهبتها إياها، فلتأخذها، وكان يحصل منها قدر يسير.

وقد كانت زوجته هذه أيضاً من الصالحات الخيرات تُكثر القيام، فنامت ليلةً عن وردها فأصبحت وهي غضبي، فسألها نور الدين عن أمرها، فذكرت له نومها الذي فوت عليها وردها، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب طبليخة في القلعة وقت السحر ليوقظ النائم ذلك الوقت لقيام الليل، ورتب للضارب جراية وجامكية.

قال ابن الأثير: وكان لا يفعل فعلاً إلا بنية حسنة. وكان بالجزيرة رجل من الصالحين كثير العبادة والورع، شديد الانقطاع عن الناس، وكان نور الدين ي كاتبه ويراسله، ويرجع إلى قوله، ويعتقد فيه اعتقاداً حسناً. فبلغه

أن نور الدين يُدمن اللعبَ بالكرة، فكتب إليه يقول: ما كنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية؟ فكتب إليه نور الدين بخطه يقول: والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، إنما نحن في ثغر والعدو منا قريب، فربما وقع صوتُ فتكون الخيل قد أدمنتُ على سرعة الانعطاف بالكر والفرّ، فاذا طلبنا العدو أدركناه، ولو تركناها على حالها لصارت جماماً لاتنفع، ولا يمكننا ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاءً، إذ لا بد من الراحة للجند، فهذا والله الذي يبعثني على اللعب بالكرة.

قال: فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظر الذي يقل في أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله، فإن من يجيء إلى اللعب بهذه النية الصالحة حتى يصير من أعظم العبادات وأكبر القربات، فقل في العالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئاً إلا بنية صالحة، وهذه أفعال العلماء الصالحين العاملين.

قال: وحُكي عنه أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة، فوضعت بين يديه، فلم يلتفت إليها، وبينما هم معه في حديثها، إذ جاءه رجل صوفي فأمر له بها، فقيل له: إنها لاتصلح لهذا الرجل، ولو أعطي غيرها كان أنفع له، فقال: أعطوها له فإني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة، فسلمت إليه، فسار بها إلى بغداد فباعها بستمئة دينار أميرى أو سبعمائة دينار أميرى. ويقال أنه أعطاها لشيخ الصوفية أبي الفتح بن حمويه، فبعث بها إلى العجم، فبيعت بألف دينار.

قال: وكان عارفاً بمذهب أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه، وليس عنده تعصب على أحد، والمذاهب كلها عنده سواء.

قال ابن عساكر: وسمع نور الدين الحديث وأسمعه، وكان قد

استجيز له ممن سمعه، وجمعه حرصاً منه على فعل الخير في نشر السنة بالأداء والتحديث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً كما جاء في الخبر. فمن رآه شاهد من جلال السلطنة وهيبة المملكة ما يبهره، فاذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يجتبه. وكان يحبّ الصالحين ويؤاخيهم ويزورهم في أماكنهم لحسن ظنه فيهم.

قال الشيخ شهاب الدين في المرأة: وقد صنف له جدّي كتاباً سماه البحر النوري فيه أحاديث العدل والجهاد ومواعظ وغير ذلك، وصنف نور الدين أيضاً كتاباً في الجهاد وهو بدمشق، ثم قال: فقد ذكرت ما نقله علماء السير مما وقع له من سيرته، وما استدل بها على صالح سيرته، وقد وقع لي مآثر لم يذكرها، ومفاجر لم يسطروها، لم تكن لغيره من ملوك الجاهلية ولا الإسلام، ولا رأوها في الأحلام.

وكان مشغولاً بصيد الغزلان، وما زال بدر مبادرته إلى الخيرات يتم ولا نقصان، هذه المكارم لاقعبان، وهذه الفصاحة لاسحبان، فمن ذلك انه كان في عزمه ان يفتح البيت المقدس، فعمل منبراً وقلبةً بجامع حلب على اسم القدس، فتوفي إلى رحمة الله تعالى قبل الفتوح، فلما ملك صلاح الدين بيت المقدس حمل المنبر إليه، وأبقى القبلية بجامع حلب.

ومنها أنه كان له عجائز بدمشق وحلب، وكان يخيظ الكوافي ويعمل السكاكر للأبواب وتبيعه العجائز ولا يدري بهن أحد، فكان يوماً يصوم ويفطر على أثمانها.

وحكى لي شرف الدين يعقوب ولد المبارز المعتمد أن في دارهم سكرة من عمل نور الدين على خرستان، وهي باقية إلى سنة خمسين وستائة يتبركون بها.

ومنها ما حكاه لي الشيخ أبو عمر شيخ المقادسة رحمه الله تعالى قال:

كان نور الدين يزور والد الشيخ أحمد في المدرسة الصغيرة التي على نهر يزيد المجاورة للدير، ونو الدين بنى هذه المدرسة والمصنع والفرن، قال: فجاء يوماً لزيارة والدي، وكان في سقف المسجد خشبة مكسورة فقال له: يا نور الدين، لو كشفت السقف وجدّته فنظر إلى الخشبة وسكت، فلما كنان من الغد جاء معماره ومعه خشبة صحيحة، فنظر إلى الخشبة المكسورة ومضى، فعجب الجماعة، فلما جاء إلى الزيارة قال بعض الحاضرين: يا نور الدين، ناكرتنا في كشف سقف وإعادته، فقال: لا والله، وإنما هو الشيخ أحمد رجل صالح وإنما أزوره لأتفجع به، وما أردت أن أزخرف له المسجد، وانقضّ ما هو صحيح، وهذه الخشبة يحصل بها المقصود، فدعوني مع حسن ظني فيه، فلعل الله ان ينفعني ببركته.

ومنها ما حكاه لي رجل من أهل حران لقبه الشيخ حياة في سنة خمس وستمائة، وقد كان نيف عن التسعين سنة، قال: لما قُتل أتابك زنكي على قلعة جعبر وملك نور الدين قلعة حلب، تصدق وأزال المكوس ورد المظالم، وأنا حديث عهد بعرس، وقد ركبني دين، فقالت لي زوجتي: قد سمعت أوصاف نور الدين وإحسانه إلى الناس، فلو قصدته وأنهيت إليه حالك لقضى دينك، قال: فخرجت من حران وليس معي سوى درهمين، تركت عندها درهماً، وتزودت بدرهم، وأتيت الفرات وقت القائلة، فعبرتُ جسر منبج، وخلعت ثيابي، ونزلت فتوضأت، وصليت ركعتين، وإذا إلى جانبي رجل ملفوف في عباءة، فقال لي: يا فقير، من أين أنت؟ قلت: أنا فقير مديون، وقد بلغني إحسان نور الدين إلى الخلق فقصدته لعله يقضي ديني، فقال: وأين أنت من نور الدين، ومن يوصلك إليه؟ كم عليك دين؟ قلت: خمسون ديناراً، فأخرج يده من العباءة وبحث في الرمل، وأخرج منه قرطاساً وألقاه إليّ، وقال: خذ هذا واقض به دينك، وارجع به إلى أهلك قال: فأخذته فعدّته وإذا به خمسون ديناراً، والتفت فلم أره، فبهت وبت في مكاني أفكر هل أرجع إلى حران أو أمضي إلى حلب، وقلت في نفسي: فهذه أو في بها ديني

فمن أين أتقوت؟ ثم قمت وقصدت طريق حلب، فبت بباب بزاعة، وقمت في الليل فأصبحت تحت قلعة حلب وقمت الصباح، وإذا قد فتح بابها ونزل نور الدين في أهبة عظيمة والأمراء بين يديه حتى جاء إلى الميدان.

فلما أراد أن يدخل، نظر إليّ ورمقني طويلاً، وأشار إلى خادم بين يديه فجاء إليّ وقال: قم، فأخذني وصعد بي القلعة، قال: فندمتُ عليّ مجيئي إلى حلب، وقلت: ياليتني قبلت من ذاك الرجل الصالح، ولعل نور الدين توهم أني اسماعيلي فداوي، فلما كان بعد ساعة، عاد نور الدين إلى القلعة، وجلس في الإيوان، ومدّ سباط عظيم ولم يمد يده إليه، وإذا فتح باب عن يمينه وخرج منه خادم وعلى يده طبق خوص وفيه عصارة عليها رغيف، فتأملتُها من بعيد فإذا هي ثردة، فتناول منها شيئاً يسيراً وأكلتُ الناس، وأكلتُ معهم. وانصرفَ الناس، وبقيتُ قاعداً خائفاً، فأوما إليّ، فقمت وأتيتُ بين يديه وأنا خائف أرعد، فقال: من أين أنت؟ فقلت: من حران. قال: وما الذي أقدمك؟ قلت: عليّ دين، وبلغني إحسانك إلى الناس، فقصدتُك لتقضي ديني، قال: وكم دينك؟ قلتُ خمسون ديناراً، قال: أفما قد أعطاك أمس صاحب العباءة على الفرات خمسين ديناراً؟ هلا رجعت إلى أهلِكَ وأنت عليك خرقة الفقير، وإذا حصل القوت للفقير ما يطلب شيئاً آخر! ثم قال: مانضيع تعبك، ورفع سجادته وكانت زرقاء، فإذا بقرطاس مثل القرطاس الذي أعطاني صاحب العباءة، قال: فبكيت بكاءً كثيراً وقلت: لاأخذه حتى تخبرني بصاحب العباءة، فقال: هذا أمر لايلزمك، فقلت: يامولانا، أنا رجل غريب ولي حرمة، فبالله عليك أخبرني! فقال: احلف لي أنك لاتحديث بهذا في حياتي. فحلفتُ له، فكشف القباء عنه، وإذا بتلك العباءة على جسده، وقال: أنا ذاك الفقير، فقلت: بالذي أعطاك هذه المنزلة بأي شيء وصلت إلى هذا؟ فقال: بقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى) (١٤) ولكن لا بد من السبب. لما التقينا بالفرنجة على حارم ونصرنا

الخيمة،
ونم أنت وإياه على باب البرج، قال: فقلتُ في نفسي: هذا الشيخ في زمن
شبابه ما ارتكبَ كبيرةً لما ارتفع يقع فيها، والله لأقتلنه قبل أن يقع في
معصية، قال: فعمدت إلى كاذة^(١٥) لي فأصلحتها وقلت: والله لأقتلنه
قبل أن يصل إليه، وجئتُ بالملوك إلى الخيمة فسهرت عليه ونور الدين
في أعلى البرج، فلما كان وقتُ السَّحر غلبتني عيناوي، فنمتُ فوقعت يدي
على خدِّ الغلام، وإذا به مثل الجمرة وقد أخذته الحمى، فأخذته ومضيت
إلى خيمتي، فلما أصبحتُ أحضرت الطيب فرآه، فقال: هذا مرضه
سماوي، فلما كان وقتُ الظهر مات، فغسلته وكفنته ودفنته، فلما كان في
اليوم الثاني دعاني نو رالدين: قال: اقعدُ فقعدت، فقال: ياسهيل (إنَّ
بعض الظنِّ إنم)^(١٦) قال: فاستحييت، قال: قد عرفتَ حالي وأنتَ
ربيتني، هل عثرتَ لي على زلة؟ قلت: حاشى الله. قال: فلم حملت
الكاذة وحدثتك نفسك لي بالسوء؟ ما أنا معصوم. لما رأيت الغلام
وقع في قلبي منه مثل النار، فعلمت أنه من تسويل الشيطان فقلت:
اشتره لعل يذهب
عني ما أنا فيه، فلم يذهب، فقالت لي: ما أقنع إلا بأن تحضره عندك في
البرج الليلة، فأمرتكَ أن تحضره فأحضرته، فلما كان في تلك الليلة
ماتركتني أنام، وبقيتُ أنا وإياها في حرب إلى الصباح وقت السحر،
فهممت أن أفتح باب البرج وأصعده إلى عندي، فجاءتني اليقظةُ
وكشفت رأسي، وقلت: إلهي، محمود عبدك، المجاهد في سبيلك، الذابُّ
عن دين نبيِّك عليه أفضل الصلاة والسلام، الذي عمّر المدارس والربط،
ووقف الأوقاف، وفعل ما فعل تختم أعماله بمثل هذا؟ قال: فسمعت
هاتفاً يقول: قد كفيناك يا محمود أمره، لا بأس عليك! فعلمت أنه قد
حدث به حادث، وأما أنت ياسهيل فجزاك الله عن الصَّحبة خيراً، والله
إنَّ القتل أهونُ عليّ من الوقوع في المعصية. ثم قدّم سهيلاً وأحسن إليه.

قال: وحكى لي الكمال ابن البانيسي ابن أخي الشهاب قال: حكى لي

من يتولى أوقاف نور الدين أنه أجز بعض بساتينه لرجل من دمشق بستمائة درهم، فأصابت البساتين جائحة، فجاء ذلك الرجل يتضرر، فأسقطوا عنه ثلاثمائة درهم، فلما كان بعد أيام، جاء الرجل ومعه ستمائة درهم وهو يبكي، فقلنا له: مالك؟ فقال: رأيتُ في المنام وقد خرج عليّ نور الدين من قبره وبيده جوكان وقال: أنت تكسر وقفي، وأراد ان يضربني، فقلت: أنا تائب، ورمى بالدرهم، فقلنا له: خذها، فقال: لا والله، أخاف ان يضربني.

قال: وحدث رجل من أهل حرّان قال: خرج يوماً نور الدين من حران قاصداً إلى الرّها، فاجتاز على نهر وفقير نائم على جانب النهر، فوقف وسلّم عليه، فرفع الفقير رأسه وقال بيده كذا، ومعناه في أيّ شيء أنت، فحرك نور الدين اصبعاً واحدة، فحرك الفقير اصبعين، ومضى نور الدين باكياً، فقيل له: ما هذا؟ قال: أشار إليّ الفقير فقال: في أيّ شيء أنت؟ وهذا كلّ ماذا؟ فقلت: من أجل رغيّف واحد، فأشار إليّ بإصبعيه وقال: فأنا أكل كلّ يوم رغيّفين وما أنا مثلك.

وقال الفقيه أبو الفتح الأشيري معيد النظامية وكان قد جمع سيرة مختصرة لنور الدين: بلغنا عن جماعة يُعتمد على قولهم أنّ نور الدين كان أكثر الليل يصليّ ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها.

قال: وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القدس للزيارة حكاية عن الكفار أنهم يقولون: ان القسيم ابن القسيم، يعنون نور الدين، له مع الله سر، فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظفر علينا وينصر بالدعاء وصلوة الليل، فإنه يصلي الليل ويرفع يديه إلى الله ويدعو والله سبحانه وتعالى يستجيب دعاءه ويعطيه سُؤلَه، وما يردُّ يده خائبة، ويظفر علينا بهذا. فهذا كلام الكفار في حقه.

وحدّث الشيخ داود المقدسي خادم قبر سيدنا شعيب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال: حضرت في دار العدل في شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين، فحضر رجلٌ زاهدٌ وفيه سمة الخير معروف بالسداد والصلاح، فسألت عنه، فقالوا: أخو الشيخ أبي البيان. وكان شخصٌ قد أودع عند أخيه أبي البيان وديعةً وقد توفي، فادعى المودع على هذا الشيخ أنه يعلم بالوديعة وطالبه بالردّ عليه، فأنكرَ هذا الرجل علمه بالوديعة، فأوجب عليه القاضي كمال الدين حكم الشرع ان يحلف أنه لاعلم له بهذه الوديعة، فحلف على ذلك، فجعل المودع يشنّع عليه ويقول: انه حلف كاذباً، ويتكلم في عرضه، ويقول في حقه من التمس وغيره، فحضر إلى عند الملك العادل شاكياً منه، وذاكراً سيرته وطريقته، ومن ذا الذي يقدر ان يقول في حقّي هذا، ويتعرض بالتماسه من الملك العادل التقدّم باحضاره والإنكار عليه مما يقول في حقه، فلما فرغ من هذا الكلام ورمى ماكان في جعبته من دعوى الحقيقة والطريقة، وكان حاصله التماس الإنكار عليه، فقال له الملك العادل: أليس ان الله تعالى يقول: (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) ^(١٧) يجهل عليك، ويقول في حقك بالجهل مالايجوز، فيجب عليك ان لاتعمل معه مثل معاملته فتكون مثله، وكأنك قابلت الاساءة بالاساءة، ومن حقك ان تقابل الاساءة بالإحسان، فقلت في نفسي: الحقُّ ما قال الملك العادل، إما قرأ هذا في كتب التفاسير فثبت في قلبه، او أجراه الله على لسانه وأنطقه به.

قال قاضي القضاة بهاء الدين بن رافع بن تميم: كان نور الدين ينفذ في كل سنة في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر الملاء شيئاً يفطر عليه، فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك، فكان نور الدين يفطر عليه، وكان إذا قدم الموصل لا يأكل إلا من طعام الشيخ عمر الملاء.

وقال صاحب المرآة حكى لي شيخنا تاج الدين الكندي رحمه الله قال:

الله تعالى عليهم وُعِدْتُ إلى حلب، التقاني شاب حسنُ الوجه طيّب الرائحة، فسلم عليّ، وقال: يا محمود، أنت من الأبدال، قد أعطاك الله الدنيا، فاشتر بها الآخرة، وسله مهما شئت، ثم علّمني كلمات وقال: إذا طلبت أمراً فأذكرها، فقلت له: من أنت رحمك الله؟ قال: أنا أخوك الخضر، ثم غاب عني، فإذا عزمْتُ على أمر، أو أردتُ أن أذهب إلى مكة أو المدينة أو أيّ بلد شئت لبستُ هذه العباءة وتكلمتُ بتلك الكلمات، وأغمضُ عيني وما أفتحها إلا وأنا في تلك البقعة.

قال: حكى لي نجم الدين الحسنُ بن سلام، أحدُ عدول دمشق وأعيانها، وكان صديقنا قال: لما ملك الأشرفُ بن العادل دمشق وعمر مسجد أبي الدرداء في القلعة، دخلتُ عليه يوماً وهو فيه، فقال لي: يا نجم الدين، كيف ترى هذا المسجد وقد عمّرتُه وأفردتُه عن الدور، وما صلى فيه أحد منذ زمن أبي الدرداء إلى الآن؟ قال: فقلت له: الله الله يامولانا، ما زال نورُ الدين منذ ملك دمشق يصليّ فيه الصلوات الخمس، قال: من أين لك هذا؟ قلت: حدّثني والدي أنه لما نزلتِ الفرنج على دمياط بعد وفاة أسد الدين وضايقوها، أشرفتُ على الأخذ، فأقام نور الدين عشرين يوماً صائماً لا يُفطر إلا على الماء، فضعف وكاد يتلف، وكان مُهاباً فلم يتجاسر أحد أن يخاطبه في ذلك، وكان له إمام يقال له يحيى ضرير يصليّ به في هذا المسجد، وكان يقرأ عليه القرآن وله عنده حُرمة. فاجتمع إليه خواصُّ نور الدين وخدمه، وقالوا: قد خفنا على السلطان، ونحن من هيبته مانقابه، وأنت تدل عليه، ونسألك أن تسأله أن يتناول ما يحفظُ به قُوته، قال: نعم إذا صليتُ بعد غداة غد الفجر سألته. قال: فلما كان في تلك الليلة رأى الشيخُ يحيى في المنام رسول الله ﷺ يقول له: يا يحيى، بشر نورَ الدين محمود برحيل الفرنج عن دمياط، قال: فقلت: يا رسول الله، ربا لا يصدّقني، وأريدُ أمانة، قال: قل له بعلامة يوم حارم، قال: فانتبه يحيى وهو ذاهبُ العقل، فلما صلى نور الدين خلفه الفجرَ وسلمَ وشرع يدعو، فهابه أن يتحدّث معه، فقال له

نور الدين: يا يحيى، قال: لبيك يامولانا، قال: مُحدّثني أو أحدثك؟ فارتعد يحيى وخرس، فقال: له: أنا أحدثك: رأيت رسول الله ﷺ في نوم هذه الليلة وقال لك كذا وكذا، فقال: نعم، فبالله يامولانا مامعنى قوله ﷺ بعلامة يوم حارم. فقال نور الدين: لما التقى الصّفان خفتُ على الاسلام لأنّي رأيتُ من كثرة الفرنج ما هالني، فانفردت عن العسكر، ونزلت فمرّعتُ وجهي في التراب، فقلت: ياسيّدي، من محمود في الفئتين، الدين دينك، والجند جندك، وهذا اليوم فافعل ما يليق بكرمك، قال: فنصرنا الله عليهم.

قال: وحدثني شهاب الدين ابن البانياسي عم كمال الدين ابن البانياسي وكان على ديوان جامع دمشق، أول ما قدمت الشام اجتمعتُ به في درب الشعارين في قاعة الوزير صفيّ الدين بن شكر وزير العادل ابن أيوب، وكان هناك جماعة، فاشتغل الوزير بالحديث معهم، وكان الشهاب إلى جانبي، فتذاكرنا نور الدين، فقال: كان أبي يُحَدِّثُ نورَ الدين في أسفاره ومقامه على ديوانه، قال: حكى لي وأنا صغير، قال: خرج نورُ الدين من دمشق يتصيد في أرض قطنا ويعفور وأنا معه، فبينما هو ذات يوم قد ركب من المخيم ليذهب إلى الصيد، إذا برجل أعجمي قد أقبل من ناحية دمشق ومعه خيل ومماليك، وكان تاجراً، فلما وصل إلى نور الدين، ترجّل وقبل الأرض، فرحب به نور الدين وكان صديقه، قال: أين الأرمغان؟ قال: حاضر، ومضي نور الدين، فلما عاد استدعاه، فاحضر قماشاً وعدة ممالك فيهم مملوكٌ مستحسن جداً، فقبل المملوكَ وردّ الباقي، وكان له خادمٌ أبيض اسمه سهيل قد ربا، فقال له: ياسهيل، خذ هذا المملوكَ وادفع إلى التاجر خمسمائة دينار وخلعةً وبغلة. قال أبو الشهاب: فحدثني سهيل، قال: لما قال كذا، قلت في نفسي: إنا لله وإنا إليه راجعون، هذا ما اشتري مملوكاً قط يساوي خمسين ديناراً يشتري مملوكاً بخمسمائة دينار، قال: ففعلت ما أمرني فتركني اياماً وقال: ياسهيل، احضر المملوك مع الممالك كل يوم يقف في الخدمة، قال: فأحضرتة، فلما كان بعد أيام قال لي: أحضره وقت العشاء الآخرة الى

لم يتسم نور الدين إلا نادرا، قال: وحكى لي جماعة من شيوخنا المحدثين أنهم قرأوا عليه حديث التسم وكان يرويه، فقالوا: تبسم، فقال: لا والله لأبتسم من غير عجب.

ذكر ألقابه التي جاءت من بغداد مع الخلعة ويخطب له بها على المنابر

اللهم وأصلح المولى السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد، الورع المجاهد، المرابط المठाغر نور الدين وعدته، ركن الاسلام وسيفه، قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومغزها، رضي الامامة وأثيرها، فخر الملة ومجيرها، شمس المعالي ومملكها، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها، محيي العدل في العالمين، منصف المظلوم من الظالمين، ناصر دولة أمير المؤمنين.

ثم إن نور الدين أسقط الجميع قبل موته، وقال: اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي.

وروي أنه كتب رقعة بخطه إلى وزيره خالد بن القيسراني يأمره بأن يكتب له صورة ما يدعى له على المنابر، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب، ولئلا يقول ما ليس فيه فكتب ابن القيسراني كلاما دعا له فيه، ثم قال: وأرى حين يقال على المنبر: اللهم وأصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين، فإن هذا ما يدخله كذب على نور الدين، فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه ماصورته: مقصودي أن لا يكذب على المنبر، أنا بخلاف ما يقال، أفرح بما لأعمل، قلة عقل، عظيم الذي كتبت به جيد، اكتب به نسخا إلى البلاد.

وكتب في آخر الرقعة ثم يبدأ بالدعاء: اللهم أره الحق حقا، اللهم

أسعده، اللهم أنصره، اللهم وفقه، من هذا الجنس، وكان يقول لأصحابه: حرام على كل من صحبني ولا يرفع إلي قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إلي.

قال ابن الأثير: حكى لنا الأمير بهاء الدين علي بن السكري وكان خصيصا بخدمة نور الدين قال: كنت مع نور الدين يوما في الميدان بالرها والشمس في ظهورنا فكلما سرنا تقدمنا الظل، فلما عدنا صار الظل وراء ظهورنا، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه، ثم قال لي: أتدري لأي شيء أجرى فرسي والتفت ورائي؟ قلت: لا، قال: قد شبهت مانحن فيه بالدنيا تهرب ممن يطلبها، وتطلب من هرب منها، فرضي الله عن ملك يفكر في مثل هذا، وأنشد صاحب الروضتين في هذا المعنى:

مثل الرزق الذي تطلبه

مثل الظل الذي يمشي معك

أنت لاتدركه متبعاً

فإذا وليت عنه تبعك

وذكر عبد الرحمن بن نصر الشيزري في كتابه المسمى المنهج المسلوب في سياسة الملوك، قال: حدثني الفقيه أبو طاهر ابراهيم بن الحسين بن الحصني الحموي قال: كنت عند الملك العادل محمود بن زنكي في دار العدل بدمشق، وقد أخرج جريدة خراج الأملاك فجعل ينظر فيها، فلما انتهى إلى ذكر خراج معرة النعمان قال: إني عزمت على انتزاع أملاك أهل المعرة من أيدي أهلها، فقد رفع إلي أهل الخبر من الثقات أن جميع أهل المعرة يتقارضون الشهادة، فيشهد أحدهم لصاحبه في دعوى ملك حتى يشهد معه ذلك في دعوى أخرى، وإن الملك الذي بأيديهم إنما حصل لهم بهذا الطريق، قال: فقلت له: أيها الملك، إن الله أوجب عليك العدل في رعيتك، فانظر واكشف، وتوقف في الأمور إذا رفعت اليك، فإن أهل المعرة خلق كثير، كيف تستحل تواطؤهم على شهادة الزور وانتزاع

الأملاك من أربابها بمجرد هذا القول؟ لا يجوز، قال: فأطرق ساعة ثم قال: إني أمسكها عليهم، ثم أكشف عنها بعد ذلك، والتفت إلى كاتبه وقال: اكتسب إلى الوالي بالمعرة ليمسك جميع الملك الذي في أيدي أهله حتى تستدعي البينة في ذلك، فكتبه ووضع بين يديه ليعلم عليه، وإذا صبي على شاطئ بردى يغني ويقول:

اعدلوا مادام أمركم

نافذ في النفع والضرر

واحفظوا أيام دولتكم

إنكم منهن على خطر

إنما الـديـنا وزيتها

طيب ما يبقى من الأثر

قال: فلما سمع الملك العادل ذلك تغير لونه، وهملت عيناه بالدموع، ثم نظر فقال: (فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله) (١٨) ثم استدار نحو القبلة وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك مما عزمت عليه الآن، ثم تناول الكتاب فمزقه وجعل يستغفر الله جميع ذلك اليوم.

وحكى الشيخ جمال الدين المطري رحمه الله في تاريخ المدينة الشريفة له على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، قال: وصل السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر رحمه الله في سنة سبع وخمسين وخمسمائة إلى المدينة الشريفة لرؤيا رآها ذكرها بعض الناس، وسمعتها من الفقيه علم الدين يعقوب ابن أبي بكر المحترق أبوه ليلة حريق المسجد الشريف عمن حدثه عن أكابر من أدرك: أن السلطان محمود المذكور رأى النبي ﷺ ثلاث مرات في ليلة واحدة وهو يقول له في كل مرة: يا محمود، أبعدني عن هذين الشخصين، يشير إلى أشقرين تجاهه، فاستحضر وزيره قبل الصبح، فذكر له ذلك، فقال: هذا أمر قد حدث في مدينة النبي ﷺ ليس له غيرك، فتجهز وخرج على عجل

بمقدار ألف راحلة وما يتبعها من خيل وغير ذلك حتى دخل المدينة على غفلة من أهلها والوزير معه، فزار وجلس في المسجد لا يدري ما يصنع فقال له الوزير: تعرف الشخصين إذا رأيتهما؟ قال: نعم، فطلب الناس عامه للصدقة، وفرق عليهم ذبا كثيرا وفضة، وقال: لا يبقى أحد بالمدينة إلا جاء، فلم يبق إلا رجلان مجاوران من أهل الأندلس نازلان في الناحية التي هي قبلة حجرة النبي ﷺ من خارج دار آل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه التي تعرف اليوم بدار العشرة، وطلبها للصدقة فامتنعا وقالوا: نحن على كفاية ما نقبل شيئا، فجد في طلبها، فجيء بهما، فلما رأهما قال للوزير: هما هذان، فسألها عن حالها وما جاء بهما، فقالا: لمجاورة النبي ﷺ فقال: أصدقاني، وتكرر السؤال حتى أفضى إلى معاقبتها، فأقرا أنها من النصارى وأنها توصلنا لكي ينقلا من في هذه الحجرة الشريفة باتفاق من ملوكهم، فوجدهما قد حفرا نقبا تحت الأرض من تحت حائط المسجد القبلي وهما قاصدان إلى جهة الحجرة الشريفة، ويجعلان التراب في بئر عندهما في البيت الذي هما فيه، فضرب أعناقهما عند الشباك الذي في شرقي حجرة النبي ﷺ خارج المسجد، ثم أحرقا بالنار آخر النهار، وركب متوجها إلى الشام، فصاح به من كان نازلا خارج السور واستغاثوا وطلبوا أن يئني عليهم سورا يحفظ أبناءهم وماشيتهم، فأمر ببناء هذا السور المجدد اليوم فبني في سنة ثمان وخمسين، وكتب اسمه على باب البقيع فهو باق إلى اليوم، رحمه الله وقدس روحه.

الباب السادس

في نبذة مما مدح به من الأشعار الفائقة والقصائد البديعة الرائقة

وكان رحمه الله قليل الابتهاج بالشعر ويجيز عليه، وقد مدح بأشعار
كثيرة، وأوصافه فوق ممدوح به، وكان في أول دولته شاعرا زمانها أبو عبد
الله محمد بن نصر بن صغير القيسراني، وأبو الحسن أحمد بن منير، ولهما
فيه مدائح، وله إليهما منائح، فمن ذلك قول ابن القيسراني فيه:

ذوالجهدادين من عدو ونفس

فهو طول الحياة في هيجاء

أيها المالك الذي ألزم النا

س سلوك المحجة البيضاء

قد فضحت الملوكة بالعدل لما

سرت في الناس سيرة الخلفاء

قاسما ما ملكت في الناس حتى

لقسمت التقى على الأتقياء

شيم الصالحين في جتر الترك

وكم من سكيننة في قباء

أنت حين اتقاس بالأسد الورد

وحين اتعد في الأولياء

صاغك الله من صميم المعالي

حيث لا مشبه سوى الآلاء

وكان القباء منك لما ضم

من الطهر مسجد بقبواء

أنت إلا تكن نبيأ فها

تلك إلا خلائق الأنبياء

رأفة في شهامة، وعفاف

في اقتدار، وسطوة في حياء

وجمال منطقتي بجبال
وكيال متوجج بهاء
وكان السيوف من عزمك الماضي
أفادت ما عندها من مضاء
ولعمري لو استطاع فذاك الـ
تقوم بالأهيات والآباء

وله أيضاً فيه:

لله عزمك أي سيف وغي
طبعت مضاربه على القهر
ما زفت الحرب العوان به
إلا انجلت عن معقل بكر
هل وجه نور الدين غير سنا
سطع الدجى عن نخلة البدر
ملك مهاتبه طليعته
أبدأ أمام جيوشه تسري
كم فك كيدهم بصاعقة
شغلت قلوبهم عن الفكر
تركزت حصونهم سجونهم
فالقوم قبل الأسر في أسر
عصم العواصم فهي ضاحكة
تجلو الظبي ثغرا على ثغر
وإذا سرايها خياله فقلت
نهضت سرايا الخوف والذعر
ورمى القلاع بمثل جندها
حتى استكان الصخر بالصخر
ياسائلي عن نهج سيرته
هل غير مفرق هامه الفجر

- ١٠٨٢٣ -

عدل حقيق من تأمله
أن يجيي العمرين بالذكر
وشهامة في الله خالصه
عقدت عليه تائم الأجر
وندى يدماضر واردها
ألا يبيت مجاور البحر
هذالمخيم في ذرا حلب
وثناؤه أبدا على ظهر

وله أيضا:

ملك أشبه الملائك فضلا
وشييه بهالك الأمر جنده
عم إحسانه فأصبح يتلى
شكره في السورى ويدرس حمده
فسقى الله ذكره أينما حل
ولافاته من النصر فده

وله أيضا فيه:

سام الشام وياله من صفة
لولاها ما عنت على يد سائم
تلك التي جمحت على من راضها
ودعوت فانقادت بغير شكائم
وإذا السعادة ساعدت في دولة
قام الزمان لها مقام الخادم
حصن بلادك هيبه لارهبة
فالدرع في عدد الشجاع الحازم
هيهات يطمع في محلك طامع
طال البناء على يمين الهادم
كلفت همتك السموف كلفت
وكأنما هي دعوة من ظالم

وأظن أن الناس لما يروا
عدلا لعدلك أرجفوا بالقائم

ولابن المنير فيه:
أيامك الدنيا الحلال والذي
له الأرض دار والبرية أعبد
وليست بدعوى لا يقوم دليلها
ولكنه الحق الذي ليس يحدد
أخو غزوات كالعقود تناسقت
تحل بأجساد الجياد وتعقد
لسان بذكر الله يكسونهاره
وجفن في السجى ليس يرقد
وبذل وغدل أغرقنا وتألقتنا
فلا الورد مثمود^(١٩) ولا الباب مؤصد
قوام سماوي، وحزم مسدد
ورأي شهابي، وعزم مؤيد